Digitized by Birzeit University Library

ISN 50436
181.07
I615A

كتاب

أسرار الحكمة المشرقية

أو (رسالة حي بن يقظان) استخلصها من درر
جواهر الفاظ الرئيس أبي علي بن سينا ..
الفيلسوف أبو جعفر بن الطفيل
الاندلسي رحمهما الله تعالى

﴿ الطبعة الاولى ﴾

سنة ١٣٢٧ هـ سنة ١٩٠٩ م

على نفقة عبد العزيز الخانجي وابن عمه محمد صبري

(تنبيه) من أراد الوقوف على ترجمة الرئيس ابن سينا مستوفاة فعليه
بكتاب إخبار العلماء باخبار الحكماء للوزير ابن القفطي

Digitized by Birzeit University Library

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الشيخ الفقيه الامام العالم الفاضل الكامل العارف أبو جعفر بن طفيل رحمة الله عليه ** الحمد لله العظيم الاعظم . القديم الاقدم . العليم الاعلم . الحكيم الاحكم الرحيم الارحم . الكريم الاكرم . الحليم الاحلم . الذى علم بالقلم . علم الانسان مالم يعلم . وكان فضل الله عليك عظيما . أحمده على فواضل النعماء . وأشكره على تتابع الآلاء . وأشهد ان لا إله الا الله وحده لاشريك له . وأن محمدا عبده ورسوله . صاحب الخلق الطاهر ، والمعجز الباهر . والبرهان القاهر . والسيف الشاهر . صلوات الله عليه وسلامه وعلى آله وأصحابه أولى الهمم العظائم . وذوى المناقب والمعالم . وعلى جميع الصحابة والتابعين الى يوم الدين وسلم تسليما كثيرا

سألت أيها الاخ الكريم الصفى الحميم منحك الله البقاء الابدى واسعدك السعد السرمدى ان أبث اليك ماأمكننى بثه من أسرار الحكمة المشرقية التى ذكرها الشيخ الامام الرئيس أبو على بن سينا ﴿فاعلم﴾ ان من أراد الحق الذى لاجمجمة فيه فعليه بطلبها والجد فى اقتنائها ولقد حرك منى سؤالك خاطرا شريفا أفضى بى والحمد لله الى مشاهدة حال لم أشهدها قبل وانتهى بى الى مبلغ هو من الغرابة بحيث لايصفه لسان ولايقوم به بيان لانه من طور غير طورها وعالم غير عالمها غير ان تلك الحال لما لها من البهجة والسرور واللذة والحبور لايستطيع من وصل اليها وانتهى الى حد من حدودها ان يكتم أمرها أو يخفى سرها بل

يعتريه من الطرب والنشاط والمرح والانبساط مايحمله على البوح بها مجملة دون تفصيل وان كان ممن لم تحذقه العلوم قال فيها بغير تحصيل حتى ان بعضهم قال في هذه الحال سبحاني ماأعظم شأني وقال غيره أنا الحق وقال غيره ليس في الثوب الا الله وأما الشيخ أبو حامد الغزالي رحمة الله عليه فقال متمثلا عند وصوله الى هذه الحال بهذا البيت

فكان ما كان مما لست أذكره * فظن خيرا ولا تسأل عن الخبر

وانما أدبته المعارف وحذقته العلوم وانظر الى قول أبي بكر بن الصائغ المتصل بكلامه في صفة الاتصال فانه يقول اذا فهم المعنى المقصود من كتابة ذلك ظهر عند ذلك انه لا يمكن ان يكون معلوم من العلوم المتعاطاة في رتبة وحصل متصوره بفهم ذلك المعنى في رتبة يري نفسه فيها مباينا لجميع ماتقدم مع اعتقادات أخر ليست هيولانية وهي أجل من ان تنسب الى الحياة الطبيعية بل هي أحوال من أحوال السعداء منزهة عن تركيب الحياة الطبيعية بل هي أحوال من أحوال السعداء خليقة ان يقال لها أحوال إلهية يهبها الله سبحانه وتعالى لمن يشاء من عباده وهذه الرتبة التي أشار اليها أبو بكر ينتهي اليها بطريق العلم النظري والبحث الفكري ولا شك انه بلغها ولم يتخطاها ٠٠ وأما الرتبة التي أشرنا اليها نحن أولا فهي غيرها وان كانت اياها بمعنى انه لا ينكشف فيها أمر على خلاف ماانكشف في هذه وانما تغايرها بزيادة الوضوح ومشاهدتها بامر لا نسميه قوة الا على المجاز اذ لا نجد في الالفاظ الجمهورية ولا في الاصطلاحات الخاصة أسماء تدل على الشئ الذي يشاهد به ذلك النوع من المشاهدة وهذه الحال التي ذكرناها وحركنا سؤالك الى ذوق منها هي من جملة الاحوال التي نبه عليها الشيخ أبو علي حيث يقول ثم اذا بلغت به الارادة والرياضة حداً

Digitized by Birzeit University Library

ما عنّت له خلسات من اطلاع نور الحق لذيذة كأنها بروق تومض اليه ثم تخمد عنه ثم انه تكثر عليه هذه الفواشي اذا امعن في الارتياض ثم انه ليوغل في ذلك حتى يغشاه في غير الارتياض فكلما لمح شيأ عاج منه الى جناب القدس فيذكر من أمره أمرا فيغشاه غاش فيكاد يرى الحق في كل شيء ثم انه لنبلغ به الرياضة مبلغا ينقلب له وقته سكينة فيصير المخطرف مألوفا والوميض شهابا بينا وتحصل له معارفة مستقرة كأنها صحبة مستمرة الى ماوصفه من تدريج المراتب وانتهائها الى النيل بان يصير سره مرآة مجلوة يحاذي بها شطر الحق وحينئذ تدر عليه اللذات العلي ويفرح بنفسه لما يري بها من أثر الحق ويكون له في هذه الرتبة نظر الى الحق ونظر الى نفسه وهو بعد متردد ثم انه ليغيب عن نفسه فيلحظ جناب القدس فقط وان لحظ نفسه فمن حيث هي لاحظة وهناك يحق الوصول فهذه الاحوال التي وصفها رضى الله عنه انما أراد بها ان تكون له ذوقا لا على سبيل الادراك النظري المستخرج بالمقاييس وتقديم المقدمات وانتاج النتائج وان أردت مثالا يظهر لك به الفرق بين إدراك هذه الطائفة وادراك سواها فتخيل حال من خلق مكفوف البصر الا انه جيد الفطرة قوي الحدس ثابت الحفظ مسدد الخاطر فنشأ منذ كان في بلدة من البلدان ومازال يتعرف أشخاص الناس بها وكثيرا من أنواع الحيوان والجمادات وسكك المدينة ومسالكها وديارها وأسواقها بما له من ضروب الادراكات الاخر حتى صار بحيث يمشي في تلك المدينة بغير دليل ويعرف كل من يلقاه ويسلم عليه باول وهلة وكان يعرف الالوان وحدها بشروح أسمائها وبعض حدود تدل عليها ثم انه بعد ان حصل في هذه الرتبة فتح بصره وحدثت له الرؤية البصرية فمشي في تلك المدينة كلها وطاف بها فلم يجد أمرا على خلاف

Digitized by Birzeit University Library

ما كان يعتقده ولا أنكر من أمرها شيأ وصادف الالوان على نحو صدق الرسوم عنده التي كانت رسمت له بها غير انه فى ذلك كله حدث له أمران عظيمان أحدهما تابع للاخر وهما زيادة الوضوح والانبلاج واللذة العظيمة فحال الناظرين الذين لم يصلوا الي طور الولاية هي حالة الاعمي الاولى والالوان التي فى هذه الحال معلومة بشروح أسمائها هي تلك الامور التى قال أبو بكر انها أجل من ان تنسب الي الحياة الطبيعية يهبها الله لمن يشاء من عباده وحال النظار الذين وصلوا الي طور الولاية ومنحهم الله تعالى ذلك الشى الذى قلنا انه لايسمي قوة الا على سبيل المجاز هى الحالة الثانية وقد يوجد فى الناذر من هو بمنزلة من كان أبدا ثاقب البصيرة مفتوح البصر غير محتاج الى النظر ولست أعنى أكرمك الله بولايته ههنا بادراك أهل النظر مايدركونه من عالم الطبيعة وبادراك أهل الولاية مايدركونه مما بعد الطبيعة فان هذين المدركين متباينان جدا بانفسهما ولايلتبس أحدهما بالاخر بل الذى نعنيه بادراك أهل النظر مايدركونه مما بعد الطبيعة مثل ماأدركه أبو بكر ويشترط فى ادراكهم هذا ان يكون حتا صحيحا وحينئذ يقع النظر بينه وبين ادراك أهل الولاية الذين يعتنون بتلك الاشياء بعينها مع زيادة وضوح وعظيم التذاذ وقد عاب أبو بكر ذكر هذا الالتذاذ على القوم وذكر انه للقوة الخيالية ووعد بان يصف مايبغى ان يكون حال السعداء عند ذلك بقول مفسر مبين وينبغى ان يقال له لاتستحل طعم شى لم تذق ولاتتخطى رقاب الصديقين ولم يفعل الرجل شيأ من ذلك ولاوفى بهذه العدة وقد يشبه أن منعه عن ذلك ماذكره من ضيق الوقت واشتغاله بالنزول الى وهران أو رأى انه ان وصف تلك الحال اضطره القول الي أشياء فيها قدح عليه فى سيرته وتكذيب لما أثبته من الحث على الاستكثار

Digitized by Birzeit University Library

من المال والجمع له وصرف وجوه الحيل في اكتسابه * وقد خرج بنا الكلام الى غير ما حركتنا اليه بسؤالك بعض خروج بحسب ما دعت الضرورة اليه وظهر بهذا القول ان مطلوبك لم يتعد أحد غرضين . اما ان تسأل عما يراه أصحاب المشاهدة والاذواق والحضور في طور الولاية فهذا مما لا يمكن اثباته على حقيقة أمره في كتاب ومتى حاول أحد ذلك وتكلفه بالقول أو الكتب استحالت حقيقته وصار من قبيل القسم الاخر النظري لانه اذا كسي الحروف والاصوات وقرب من عالم الشهادة لم يبق على ما كان عليه بوجه ولا حال واختلفت العبارات فيه اختلافا كثيرا وزلت به اقدام قوم عن الصراط المستقيم وظن بآخرين ان أقدامهم زلت وهي لم تزل وانما كان ذلك لانه أمر لانهاية له في حضرة منسعة الاكناف محيطة غير محاط بها * والغرض الثاني من الغرضين اللذين قلنا ان سؤالك ان يتعدى أحدهما وان تبتغي التعريف بهذا الامر على طريقة أهل النظر وهذا أكرمك الله بولايته شيء يحتمل ان يوضع في الكتب وتتصرف فيه العبارات ولكنه أعدم من الكبريت الاحمر ولا سيما في هذا الصقع الذي نحن فيه لانه من الغرابة في حد لا يظفر باليسير منه الا الفرد بعد الفرد ومن ظفر بشيء منه لم يكلم الناس به الا رمزا فان الملة الحنيفية والشريعة المحمدية قد منعت من الخوض فيه وحذرت عنه ولا تظنن ان الفلسفة التي وصلت الينا في كتب ارسطو وطاليس وأبي نصر وفي كتاب الشفاء تفي بهذا الغرض الذي أردته ولا ان أحدا من أهل الاندلس كتب فيه شيأ فيه كفاية وذلك ان من نشأ بالاندلس من أهل الفطرة الفائقة قبل شيوع علم المنطق والفلسفة فيها قطعوا أعمارهم بعلوم التعاليم وبلغوا فيها مبلغا رفيعا ولم يقدروا على أكثر من ذلك ثم خلف من بعدهم خلف زادوا عليهم

بشئ من علم المنطق فنظروا فيه ولم يفض بهم الى حقيقة الكمال فكان فيهم من قال

برح بي ان علوم الورى * اثنان ماان فيهما من مزيد
حقيقة بعجز تحصيلها * وباطل تحصيله مايفيد

ثم خلف من بعدهم خلف آخر أحذق منهم نظرا وأقرب الى الحقيقة ولم يكن فيهم اثقب ذهنا ولا أصح نظرا ولا أصدق رؤية من أبي بكر بن الصائغ غير انه شغلته الدنيا حتى اخترمته المنية قبل ظهور خزائن علمه وبث خفايا حكمته وأكثر مايوجد له من التآليف انما هي غير كاملة ومجزومة من أواخرها ككتابه في النفس وتدبير المتوحد وما كتبه في المنطق وعلم الطبيعة واما كتبه الكاملة فهي كتب وجيزة ورسائل مختلسة وقد صرح هو نفسه بذلك وذكر ان المعنى المقصود برهانه في رسالة الاتصال ليس يعطيه ذلك القول عطاء بينا الا بعد عسر واستكراه شديد وان ترتيب عبارته في بعض المواضع على غير الطريق الاكمل ولو اتسع له الوقت مال لتبديلها فهذا حال ما وصل الينا من علم هذا الرجل ونحن لم نلق شخصه واما من كان معاصرا له ممن لم يوصف بانه في مثل درجته فلم نر له تأليفا . وأما من جاء بعدهم من المعاصرين لنا فهم بعد في حد التزايد أو الوقوف على غير كمال أو ممن لم تصل الينا حقيقة أمره . وأما ماوصل الينا من كتب أبي نصر فاكثرها في المنطق وماورد منها في الفلسفة فهي كثيرة الشكوك فقد أثبت في كتاب الملة الفاضلة بقاء النفوس الشريرة بعد الموت في آلام لانهاية لها بقاء لانهاية له ثم صرح في السياسة المدنية بانها منحلة وصائرة الى العدم وانه لا بقاء الا للنفوس الكاملة ثم وصف في كتاب الاخلاق شيأ من أمر السعادة الانسانية وانها انما تكون في هذه

Digitized by Birzeit University Library

الحياة التي في هذه الدار ثم قال عقب ذلك كلاما هذا معناه وكل ما يذكر غير هذا فهو هذيان وخرافات عجائز فهذا قد أيأس الخلق جميعا من رحمة الله تعالى وصير الفاضل والشرير في رتبة واحدة اذ جعل مصير الكل الى العدم وهذه زلة لانقال وعثرة ليس بعدها جبر هذا مع ما صرح به من سوء معتقده في النبوة وانها بزعمه للقوة الخيالية خاصة وتفضيله الفلسفة عليها الى أشياء ليس بنا حاجة الي ايرادها * وأما كتب ارسطو طاليس فقد تكفل الشيخ أبو علي بالتعبير عما فيها وجرى على مذهبه وسلك طريق فلسفته في كتاب الشفاء وصرح في أول الكتاب بان الحق عنده غير ذلك وانه انما ألف ذلك الكتاب على مذهب المشائين وان من أراد الحق الذي لاجمجمة فيه فعليه بكتابه في الفلسفة المشرقية ومن عنى بقراءة كتاب الشفا و بقراءة كتب ارسطوطاليس ظهر له في أكثر الامور انها تتفق وان كان في كتاب الشفا أشياء لم تبلغ الينا عن ارسطو واذا أخذ جميع ما تعطيه كتب ارسطو وكتاب الشفاء على ظاهره دون ان يتفطن لسره و باطنه لم يوصل به الى الكمال حسبما نبه عليه الشيخ أبوعلي في كتاب الشفاء * وأما كتب الشيخ أبي حامد الغزالي فهو بحسب مخاطبته للجمهور يربط في موضع ويحل في آخر و يكفر باشياء ثم يتحللها ثم انه من جملة ما كفر به الفلاسفة في كتاب التهافت انكارهم لحشر الاجساد واثباتهم الثواب والعقاب للنفوس خاصة ثم قال في أول كتاب الميزان ان هذا الاعتقاد هو اعتقاد شيوخ الصوفية على القطع ثم قال في كتاب المنقذ من الضلال والمفصح بالاحوال ان اعتقاده هو كاعتقاد الصوفية وان أمره انما وقف على ذلك بعد طول البحث وفي كتبه من هذا النوع كثير يراه من تصفحهما وأمعن النظر فيها وقد اعتذر عن هذا الفعل في

آخر كتاب ميزان العمل حيث وصف ان الاراء ثلاثة أقسام • رأى يشارك فيه الجمهور فيما هم عليه • ورأي يكون بحسب مايخاطب به كل سائل ومسترشد • ورأي يكون بين الانسان وبين نفسه لايطلع عليه الا من هو شريكه في اعتقاده ثم قال بعد ذلك ولو لم يكن في هذه الالفاظ الا مايشككك في اعتقادك الموروث الكفي بذلك نفعا فان من لم يشك لم ينظر ومن لم ينظر لم يبصر ومن لم يبصر بقي في العمى والحيرة ثم تمثل بهذا البيت

خذ ماتراه ودع شيأ سمعت به * في طلعة الشمس مايغنيك عن زحل

فهذه صفة تعليمه وأكثره انما هو رمز واشارة لاينتفع به الا من وقف عليها ببصيرة نفسه أولا ثم سمعها منه ثانيا أومن كان معدا لفهمها فائق الفطرة يكتفي بايسر اشارة وقد ذكر في كتاب الجواهر ان له كتبا مضنونا بها على غير أهلها وانه ضمنها صريح الحق ولم يصل الى الاندلس في علمنا منها شئ بل وصلت كتب يزعم بعض الناس انها هي تلك المضنون بها وليس الامر كذلك وتلك الكتب هي كتاب المعارف العقلية وكتاب النفخ والتسوية ومسائل مجموعة سواها وهذه الكتب وان كانت فيها اشارات فانها لاتتضمن عظيم زيادة في الكشف على ماهو مبثوث في كتبه المشهورة وقد يوجد في كتاب المقصد الاسنى ماهو أغمض مما في تلك وقد صرح هو بان كتاب المقصد الاسنى ليس مضنونا به فيلزم من ذلك ان هذه الكتب الواصلة ليست هي المضنون بها وقد توهم بعض المتأخرين من كلامه الواقع في آخر كتاب المشكاة أمرا عظيما أوقعه في مهواة لامخلص له منها وهو قوله بعد ذكر أصناف المحجوبين بالانوار ثم انتقاله الى ذكر الواصلين انهم وقفوا على ان هذا الموجود العظيم متصف بصفة تنافي الوحدانية المحضة فاراد ان يلزمه من

ذلك انه يعتقد ان الحق سبحانه في ذاته كثرة ما تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا ولاشك عندنا في ان الشيخ أبا حامد ممن سعد السعادة القصوى ووصل تلك المواصل الشريفة المقدسة لكن كتبه المضنون بها المشتملة على علم المكاشفة لم تصل الينا ولم يتخلص لنا نحن الحق الذي انتهينا اليه وكان مبلغنا من العلم بتتبع كلامه وكلام الشيخ أبي علي وصرف بعضهما الى بعض واضافة ذلك الى الاراء التي نبغت في زماننا هذا ولهج بها قوم من منتحلي الفلسفة حتى استقام لنا الحق أولا بطريق البحث والنظر ثم وجدنا منه الا ن هذا الذوق اليسير بالمشاهدة وحينئذ رأينا أنفسنا أهلا لوضع كلام يؤثر عنا وتعين علينا ان تكون أيها السائل أول من تحفناه بما عندنا واطلعناه على مالدينا لصحيح ولائك. وزكاء صفائك غيرانا ان ألقينا اليك بغايات ماانتهينا اليه من ذلك من قبل ان تحكم مباديها معك لم يفدك ذلك شيأ أكثر من أمر تقليدي مجمل هذا ان أنت حسنت ظنك بنا بحسب المودة والمؤالفة لا يعني انا نستحق ان يقبل قولنا ونحن لانقنع لك بهذه الرتبة ولانرضى لك الا ماهو أعلى منها اذ هي غير كفيلة بالنجاة فضلا عن الفوز باعلى الدرجات وانما نريد ان نحملك على المسالك التي نقدم عليها سلوكنا ونسبح بك في البحر الذي قد عبرناه أولا حتى يفضي بك الى ما أفضى بنا اليه فتشاهد من ذلك ماشاهدناه وتتحقق ببصيرة نفسك كل ماتحققناه وتستغني عن ربط معرفتك بما عرفناه . وهذا يحتاج الى مقدار معلوم من الزمان غير يسير وفراغ من الشواغل واقبال بالهمة كلها على هذا الفن فان صدق منك هذا العزم وصحت نيتك للتشمير في هذا المطلب فستحمد عند الصباح مسراك وتنال بركة مسعاك وتكون قد أرضيت ربك وأرضاك وأنالك حيث تريده من أملك وتطمح

اليه بهمتك وكليتك وأرجو أن أصل من السلوك بك على اقصد الطريق وآمنها من الفوائل والافات وان عرضت الان الي لمحة يسيرة على التشويق والحث على دخول الطريق فانا واصف لك قصة حي بن يقظان وابسال وسلامان الذين سماهم الشيخ أبوعلى ففي قصصهم عبرة الاولي الالباب وذكرى لمن كان له قلب أوألقي السمع وهوشهيد.

ذكر سلفنا الصالح رضى الله عنهم ان جزيرة من جزائر الهند التى تحت خط الاستواء وهى الجزيرة التى يتولد بها الانسان من غير أم ولاأب وبها شجر يثمر نساء وهى التي ذكر المسعودى انها جواري الواقواق لان تلك الجزيرة أعدل بقاع الارض هواء وأتمها لشروق النور الاعلي عليها استعدادا وان كان ذلك على خلاف مايراه جمهور الفلاسفة وكبار الاطباء فانهم يرون ان أعدل مافي المعمورة الاقليم الرابع فان كانوا قالوا ذلك لانه صح عندهم انه ليس على خط الاستواء عمارة لما نع من الموانع الارضية فلقولهم ان الاقليم الرابع أعدل بقاع الارض وجه وان كانوا انما أرادوا بذلك ان ماعلى خط الاستواء شديدالحرارة كالذى يصرح به أكثرهم فهو خطأ يقوم البرهان على خلافه وذلك انه قد تبرهن فى العلوم الطبيعية انه لاسبب لتكون الحرارة الا الحركة أوملاقاة الاجسام الحارة والاضاءة وتبين فيها أيضا ان الشمس بذاتها غير حارة ولا متكيفة بشئ من هذه الامور المزاجية وقد تبين فيها أيضاان الاجسام التي تقبل الاضاءة أتم القبول هي الاجسام الصقيلة غيرالشفافة ويليها فى قبول ذلك الاجسام الكثيفة غير الصقيلة فاما الاجسام الشفافة التى لاشي فيها من الكثافة فلا تقبل الضوء بوجه وهذا وحده مما برهنه الشيخ أبو على خاصة ولم يذكره من تقدمه فاذا تم وصحت هذه المقدمات فاللازم عنها ان

الشمس لاتسخن الارض كما تسخن الاجسام الحارة اجساما أخرتماسها لان الشمس فى ذاتها غير حارة ولا الارض أيضا تسخن بالحركة لانها ما كنة وعلى حالة واحدة فى وقت شروق الشمس عليها وفى وقت مغيبها عنها وأحوالها في التسخين والتبريد ظاهرة الاختلاف للحس فى هذين الوقتين ولا الشمس أيضا تسخن الهواء أولا ثم تسخن بعد ذلك الارض بتوسط سخونة الهواء وكيف يكون ذلك ونحن نجد ماقرب من الهواء من الارض فى وقت الحر أسخن كثيرا من الهواء الذي يبعد منه علوا فبقي ان تسخين الشمس للارض انما هو على سبيل الاضاءة لاغير فان الحرارة تتبع الضوء أبدا حتي أن الضوء اذا أفرط فى المرآة المقعرة أشعل ماحاذاها وقد ثبت فى علوم التعاليم بالبراهين القطعية ان الشمس كرية الشكل وان الارض كذلك وان الشمس أعظم من الارض كثيرا وان الذي يستضيء من الارض بالشمس أبدا هو أعظم من نصفها وان هذا النصف المضيء من الارض فى كل وقت أشد ما يكون الضوء في وسطه لانه أبعد المواضع من الظلمة عند محيط الدائرة ولانه يقابل من الشمس أجزاء كثيرة وماقرب من المحيط كان أقل ضوأ حتى ينتهى الى الظلمة عند محيط الدائرة الذي ماأضاء موقعه من الارض قط وانما يكون الموضع وسط دائرة الضياء اذا كانت الشمس علي سمت رؤس الساكنين فيه وحينئذ تكون الحرارة فى ذلك الموضع أشد ما يكون فان كان الموضع مما تبعد الشمس فيه عن مسامتة روس أهله كان شديد البرودة جدا وان كان مما تدوم فيه المسامتة كان شديد الحرارة وقد ثبت فى علم الهيئة ان بقاع الارض التي على خط الاستواء لاتسامت الشمس روس أهلها سوي مرتين فى العام عند حلولها برأس الحمل وعند حلولها برأس الميزان وهي فى سائر العام

ستة أشهر جنوبا منهم وستة أشهر شمالا منهم فليس عندهم حر مفرط ولا برد مفرط وأحوالها بسبب ذلك متشابهة وهذا القول يحتاج الى بيان أكثر من هذا لايليق بما نحن بسبيله وانما نبهناك عليه لانه من الامور التي تشهد بصحة ماذكر من تجويز تولد الانسان بتلك البقعة من غير أم ولا أب فمنهم من بت الحكم وجزم القضية بان حي بن يقظان من جملة من تكون في تلك البقعة من غير أم ولا أب ومنهم من أنكر ذلك وروي من أمره خبرا نقصه عليك فقال انه كان بازاء تلك الجزيرة جزيرة عظيمة متسعة الاكناف كثيرة الفوائد عامرة بالناس يملكها رجل منهم شديد الانفة والغيرة وكانت له أخت ذات جمال وحسن باهر فعضلها ومنعها الازواج اذ لم يجد لها كفوا وكان له قريب يسمى يقظان فتزوجها سرا على وجه جائز في مذهبهم المشهور في زمنهم ثم انها حملت منه ووضعت طفلا فلما خافت ان يفتضح أمرها وينكشف سرها وضعته في تابوت أحكمت زمه بعد ان أرونه من الرضاع وخرجت به في أول الليل في جملة من خدمها وثقاتها الي ساحل البحر وقلبها يحترق صبابة وخوفا عليه ثم انها ودعته وقالت اللهم انك قد خلقت هذا الطفل ولم يكن شيأ مذكورا ورزقته في ظلمات الاحشاء وتكفلت به حتي تم واستوى وأنا قد سلمته الى لطفك ورجوت له فضلك خوفا من هذا الملك الغشوم الجبار العنيد فكن له ولا تسلمه ياأرحم الراحمين ثم قذفت به في اليم فصادف ذلك جرى الماء بقوة المد فاحتمله من ليلته الى ساحل الجزيرة الأخرى المتقدم ذكرها وكان المد ينتهي الي أقصاه في البر لايصل الى ذلك المكان الا بعد سنة فادخله الماء بقوته الى أجمة ملتفة الشجر عذبة التربة مستورة عن الرياح والمطر محجوبة عن الشمس تزاور عنها اذا طلعت وتميل اذا غربت ثم أخذ

Digitized by Birzeit University Library

الماء فى النقص والجزر عن التابوت الذى فيه الطفل و بقى التابوت فى ذلك الموضع وعلت الرمال بهبوب الرياح وتراكمت بعد ذلك حتى سدت باب الاجمة على التابوت و ردمت مدخل الماء الى تلك الاجمة فكان المدلا ينتهي اليها وكانت مسامير التابوت قد قلعت والواحه قد اضطربت عند رمى الماء اياه فى تلك الاجمة فلما اشتد الجوع بذلك الطفل بكي واستغاث وعالج الحركة فوقع صوته فى أذن ظبية فقدت ولدا لها خرج من كناسه فحمله العقاب فلما سمعت الصوت ظنته ولدها فتتبعت الصوت حتى وصلت الى التابوت ففحصت عنه باظلافها وهو يئن من داخله حتى طار عن التابوت لوح من أعلاه فحنت الظبية ورئمت به وألقمته حلمتها وأرونه لبنا سائغا ومازالت تتعهده وتربيه وتدفع عنه الاذى * هذا ما كان من ابتداء أمره عند من ينكر التولد ونحن نصف بعد هذا كيف تربي وكيف انتقل فى أحواله حتى بلغ المبلغ العظيم * وأما الذين زعموا انه تولد من الارض فانهم قالوا ان بطنا من أرض تلك الجزيرة تخمرت فيه طينة على مر السنين والاعوام حتى امتزج فيها الحار بالبارد والرطب باليابس امتزاج تكافؤ وتعادل فى القوى وكانت هذه الطينة المتخمرة كبيرة جدا وكان بعضها ينفصل بعضا فى اعتدال المزاج والتهيؤ لتكون الامشاج وكان الوسط منها أعدل مافيها وأتمه مشابهة بمزاج الانسان فتمخضت تلك الطينة وحدث فيها شبه نفاخات الغليان لشدة لزوجتها وحدث للوسط منها لزوجة ونفاخة صغيرة جدا منقسمة بقسمين بينهما حجاب رقيق ممتلئة بجسم لطيف هوائى فى غاية من الاعتدال اللائق به فتعلق به عند ذلك الروح الذى هو من أمر الله تعالى وتشبث به تشبثا يعسر انفصاله عنه عند الحس وعند العقل اذ قد تبين ان هذا الروح دائم الفيضان من عند الله عز وجل

وانه بمنزلة نور الشمس الذى هو دائم الفيضان على العالم فمن الاجسام مالا يستضاء به وهو الهواء الشفاف جدا ومنها مايستضاء به بعض استضاءة وهى الاجسام الكثيفة غير الصقيلة وهذه تختلف فى قبول الضياء فتختلف بحسب ذلك ألوانها ومنها مايستضاء به غاية الاستضاءة وهي الاجسام الصقيلة كالمرآة ونحوها فاذا كانت هذه المرآة مقعرة على شكل مخصوص حدث فيه النار لافراط الضياء وكذلك الروح الذي هو من أمر الله تعالى فياض أبدا على جميع الموجودات فمنها مالا يظهر أثره فيه لعدم الاستعداد وهى الجمادات التى [illegible] وهذه بمنزلة الهواء فى المثال المتقدم ومنها مايظهر أثره فيه وهى روح النبات بحسب استعداداتها وهذه بمنزلة الاجسام الكثيفة فى المثال المتقدم ومنها ما يظهر أثره فيه ظهورا كثيرا وهى أنواع الحيوان وهذه بمنزلة الاجسام الصقيلة في المثال المتقدم ومن هذه الاجسام الصقيلة مايزيد على شدة يقبوله لضياء الشمس انه يحكى صورة الشمس ومثالها وكذلك أيضا من الحيوان مايزيد على شدة قبوله للروح انه يحكي الروح ويتصور بصورته وهو الانسان خاصة واليه الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم . ان الله خلق آدم على صورته فان قويت فيه هذه الصورة حتى تتلاشى جميع الصور في حقها وتبقى هى وحدها وتحرق سبحات نورها كل ماأدركته كانت حينئذ بمنزلة المرآة المنعكسة على نفسها المحرقة لسواها وهذا لايكون الا للانبياء صلوات الله عليهم أجمعين وهذا كله مبين فى مواضعه اللائقة به فليرجع الى تمام ماحكوه من وصف ذلك التخلق . قالوا فلما تعلق هذا الروح بتلك القرارة خضعت له جميع القوى وسجدت له وسخرت بأمر الله تعالي فتكون بازاء تلك القرارة نفاخة أخرى منقسمة الى ثلاث قرارات بينها [illegible] نافذة

Digitized by Birzeit University Library

وامتلات بمثل ذلك الجسم الهوائي الذي امتلأت منه القرارة الاولى الأنه
ألطف منه وسكن في هذه البطون الثلاثة المقسمة من واحد طائفة من تلك
القوي التي خضعت له وتوكلت بحراسته والقيام عليه وانهاء مايطرأ فيها من
دقيق الاشياء وجلها الى الروح الاول المتعلق بالقرارة الأولى وتكون أيضا
بازاء هذه القرارة من الجهة المقابلة للقرارة الثانية نفاخة ثالثة مملوءة جسما هوائيا
الا انه أغلظ من الاولين وسكن في هذه القرارة فريق من تلك القوى
الخاضعة المتوكلة بحفظه والقيام عليه فكانت هذه القرارة الاولى والثانية
والثالثة أول ماتخلق من تلك الطينة المتخمرة الكبرى في الترتيب الذي
ذكرناه واحتاج بعضها الى بعض فالاولى منها حاجتها الى الاخريين حاجة
استخدام وتسخير والاخريان حاجتهما الى الاولى حاجة المرؤس الى الرئيس
والمدبر الى المدبر وكلاهما لما يتخلق بعدهما من الاعضاء رئيس لامرؤس
وأحدهما وهو الثاني أتم رآسة من الثالث فالاول منهما لما تعلق به من الروح
واشتغلت حرارته تشكل بشكل النار الصنوبري وتشكل أيضا الجسم
الغليظ المحدق به علي شكله وتكون لحما صلبا وصار عليه غلافا صفيقا يحفظه
وسمي العضو كله قلبا واحتاج لما يتبع الحرارة من التحليل وافناء الرطوبات
الى شيء يمده و يغذوه ويخلف مايتحلل منه على الدوام والالم يحصل بقاؤه
واحتاج أيضا الى أن يجس بما يلائمه فيجتذبه و بما يخالفه فيدفعه فتكفل له
العضو الواحد بما فيه من القوى التي أصلها منه بحاجته الواحدة وتكفل له
العضو الاخر بما فيه بالاخرى وكان المتكفل بالحس هو الدماغ والمتكفل
بالغذاء هو الكبد واحتاج كل واحد من هذين اليه في ان يمدهما بحرارته
وبالقوى المخصوصة بهما التي أصلها منه فانتسحت بنيتهما لذلك كله مسالك

Digitized by Birzeit University Library

وطرق بعضها أوسع من بعض بحسب ماتدعو اليه الضرورة فكانت الشرايين والعروق ثم مازالوا يصفون الخلقة كلها والاعضاء بجملتها على حسب ماوصفه الطبيعيون فى خلقة الجنين فى الرحم لم يغادروا من ذلك شيأ الى ان كمل خلقه وتمت أعضاؤه وحصل في حد خروج الجنين من البطن واستعانوا فى وصف كمال ذلك بتلك الطينة الكبيرة المنجمرة وانها كانت قد تهيأت لان يتخلق منها كل مايحتاج اليه فى خلق الانسان من الاغشية المجللة لجملة بدنه وغيرها فلما كمل انشقت عنه تلك الاغشية بشبه المخاض وتصدع باقى الطينة اذ كان قاد لحقه الجفاف ثم استغاث ذلك الطفل عند فناء مادة غذائه واشتداد جوعه فلبته ظبية فقدت طلاهائم استوى ما وصفه هؤلاء بعد هذا الموضع وماوصفته الطائفة الأولى فى معنى التربية فقالوا جميعا ان الظبية التى تكفلت به وافقت خصبا ومرعي أثيثا فكثر لحمها ودر لبنها حتى قام بغذاء ذلك الطفل أحسن قيام وكانت معه لاتبعد عنه الا لضرورة الرعي وألف الطفل تلك الظبية حتى كان بحيث اذا هى أبطأت عنه اشتد بكاؤه فطارت اليه ولم يكن بتلك الجزيرة شئ من السباع العادية فتربى الطفل ونما واغتذى بلبن تلك الظبية الي ان تم له حولان وتدرج فى المشي وأثغر فكان يتبع تلك الظبية وكانت هي ترفق به وترحمه وتحمله الي مواضع فيها شجر مثمر فكانت تطعمه ماتساقط من ثمرتها الحلوة النضيجة وما كان منها صلب القشر كسرته له بطواحنها ومتى عاد الى اللبن أروته ومتى ظمئ الي الماء أوردته ومتى اسخن ظللته ومتى خصر أدفأته فاذا جن الليل صرفته الى مكانه الاول وجللته بنفسها وبريش كان هناك مما ملئ به التابوت أولا فى وقت وضع الطفل فيه وكان فى غدوهما ورواحهما قد ألفهما (برب يسرح بهما ويبيت حيث مبيتهما فما زال الطفل

Digitized by Birzeit University Library

مع الظبية على تلك الحال يحكي نغمتها بصوته حتى لا يكاد يفرق بينهما وكذلك كان يحكي جميع ما يسمعه من أصوات الطير وأنواع سائر الحيوان محاكاة شديدة لقوة انفعاله لما يريده وأكثر ما كانت محاكاته لاصوات الظبا في الاستصراخ والاستلاف والاستدعاء والاستدفاع اذ للحيوانات في هذه الاحوال المختلفة أصوات مختلفة فألفته الوحوش وألفها ولم تنكره ولا أنكرها فلما ثبت في نفسه أمثلة الاشياء بعد مغيبها عن مشاهدته حدث له نزوع الى بعضها وكراهية لبعض وكان في ذلك كله ينظر الى جميع الحيوانات فيراها كاسية بالأوبار والاشعار وأنواع الريش وكان يرى مالها من سرعة العدو وقوة البطش ومالها من الاسلحة المعدة لمدافعة من ينازعها مثل القرون والانياب والحوافر والصياصي والمخالب ثم يرجع الى نفسه فيرى ما به من العري وعدم السلاح وضعف العدو وقلة البطش عند ما كانت تنازعه الوحوش أكل الثمرات وتستبد بها دونه وتغلبها عليه فلا يستطيع المدافعة عن نفسه ولا الفرار عن شئ منها وكان يرى أترابه من أولاد الظبا قد نبتت لها قرون بعد ان لم تكن وصارت قوية بعد ضعفها في العدو ولم ير لنفسه شيأ من ذلك كله فكان يفكر في ذلك ولا يدري ما سببه وكان ينظر الى ذوي العاهات والخلق الناقص فلا يجد لنفسه شيئا فيهم وكان أيضا ينظر الي مخارج الفضول من سائر الحيوان فيراها مستورة أما مخرج اغلظ الفضلتين فبالاذناب واما أرقهما فبالاوبار وما أشبهها ولانها كانت أخفى قضبانا منه فكان ذلك كله يكربه ويسوءه فلما طال همه في ذلك كله وهو قد قارب سبعة أعوام ويئس من ان يكمل له ما قد أضربه نقصه اتخذ من أوراق الشجر العريضة شيأ جعل بعضه خلفه وبعضه قدامه وعمل

Digitized by Birzeit University Library

من الخوص والحلفاء شبه حزام على وسطه علق به تلك الاوراق فلم يلبث الا يسيرا حتى زوى ذلك الورق وجف وتساقط عنه فما زال يتخذ غيره ويخصف بعضه ببعض طاقات مضاعفة وربما كان ذلك أطول لبقائه الا انه على كل حال قصير المدة واتخذ من أغصان الشجر عصيا سوى أطرافها وعدل متنها وكان يهش بها على الوحوش المازعة له فيحمل على الضعيف منها ويقاوم القوى منها فنبل بذلك قدره عند نفسه بعض نبالة وعلم ان لبده فضلا كثيرا على أيديها اذ أمكن له بها من ستر عورته واتخاذ العصى التي يدافع بها عن حوزته ما استغنى به عما أراده من الذئب والسلاح الطبيعي وفي خلال ذلك ترعرع وأربى على السبع سنين وطال به العناء في تجديد الاوراق التي كان يستتر بها فكانت نفسه تنازعه الى اتخاذ ذئب من أذناب الوحوش الميتة يعلقه على نفسه الا انه كان يرى احياء الوحوش تتحامى ميتها وتفر عنه فلم يتأتى له الاقدام على ذلك الفعل الى ان صادف في بعض الايام نسرا ميتا فهدى الى نيل أمله منه واغتنم الفرصة فيه اذ لم ير للوحوش عنه نفرة فأقدم عليه وقطع جناحيه وذنبه صحاحا كما هي وفتح ريشها وسواها وسلخ عنه سائر جلده وفصله على قطعتين ربط احداهما على ظهره والاخرى على سرته وما تحتها وعلق الذنب من خلفه وعلق الجناحين على عضده فاكسبه ذلك سترا ودفئا ومهابة في نفوس جميع الوحوش حتى كانت لا تنازعه ولا تعارضه فصار لا يدنو اليه شئ منه سوى الظبية التي كانت أرضعته وربته فانها لم تفارقه ولا فارقها الى ان أسنت وضعفت فكان يرتاد بها المراعي الخصبة ويجتنى لها الثمرات الحلوة ويطعمها وما زال الهزال والضعف يستولي عليها ويتوالى الى ان أدركها الموت فسكنت حركاتها بالجملة وتعطلت جميع أفعالها فلما رآها الصبي

Digitized by Birzeit University Library

على تلك الحالة جزع جزعا شديدا وكادت نفسه تفيض أسفا عليها فكان
ينادبها بالصوت الذي كانت عادتها ان تجيبه عند سماعه و يصيح بأشد
مايقدر عليه فلا يرى لها عند ذلك حركة ولا تغيرا فكان ينظر الى أذنيها والى
عينيها فلا يرى بها آفة ظاهرة وكذلك كان ينظر الى جميع أعضائها فلا يرى
بشيء منها آفة فكان يطمع ان يعثر علي موضع الآفة ويزيلها عنها فترجع
الى ما كانت عليه فلم يتأت له شيء من ذلك ولا استطاعه وكان الذي أرشده
لهذا الرأي ما كان قد اعتبره في نفسه قبل ذلك لانه كان يري انه اذا غمض
عينيه أو حجبهما بشيء لا يبصر شيأ حتى يزول ذلك العائق وكذلك يري انه
اذا أدخل أصبعيه في أذنيه وسدهما لا يسمع شيأ حتى يزيلهما واذا أمسك
أنفه بيده لا يشم شيأ من الروائح حتى يفتح أنفه فاعتقد من أجل ذلك ان
جميع مالها من الادراكات والافعال قد تكون لها عوائق تعوقها فاذا أزيلت
تلك العوائق عادت الافعال فلما نظر الى جميع أعضائها الظاهرة ولم ير فيها
آفة ظاهرة وكان يري مع ذلك العطلة قد شملتها ولم يختص بها عضو دون
عضو وقع في خاطره ان الآفة التي نزلت بها انما هي في عضو غائب عن العيان
مستكن في باطن الجسد وان ذلك العضو لا يفنى عنه في فعله شيء من هذه
الاعضاء الظاهرة فلما نزلت به الآفة عمت المضرة وشملت العطلة وطمع بأنه
لو عثر بذلك العضو وأزال عنه ما نزل به لاستقامت أحواله وفاض علي سائر
البدن نفعه وعادت الأفعال الي ما كانت عليه وكان قد شاهد قبل ذلك في
الأشباح الميتة من الوحوش وسواها أن جميع أعضائها مصمتة لا تجويف فيها
الا القحف والصدر والبطن فوقع في نفسه ان العضو الذي بتلك الصفة لن
يعدو احد هذه المواضع الثلاثة وكان يغلب علي ظنه غلبة قوية انه انما هو في

Digitized by Birzeit University Library

الموضع المتوسط من هذه المواضع الثلاثة اذ كان قد استقر في نفسه ان جميع الأعضاء محتاجة اليه وان الواجب بحسب ذلك ان يكون مسكنه في الوسط وكان أيضا اذا رجع الى ذاته شعر بمثل هذا العضو في صدره ولانه كان يعترض سائر أعضائه كاليد والرجل والأذن والأنف والعين والرأس ويقدر مفارقتها فيتأتي له انه كان يستغني عنها وكان يقدر في رأسه مثل ذلك ويظن انه يستغني عنه فاذا فكر في الشيء الذي يجده في صدره لم يتأت له الاستغناء عنه طرفة عين وكذلك كان عند محاربته الوحوش أكثر ما يتقي من صياصيهم علي صدره لشعوره بالشيء الذي فيه فلما جزم الحكم بان العضو الذي نزلت به الآفة انما هو في صدرها أجمع علي البحث عليه والتنقير عنه لعله يظفر به ويري آفته فيزيلها ثم انه خاف ان يكون نفس فعله هذا أعظم من الآفة التي نزلت بها أولا فيكون سعيه عليها ثم انه تفكر هل رأي من الوحوش وسواها من صار في مثل تلك الحال ثم عاد الي مثل حاله الاول فلم يجد شيأ فحصل له من ذلك اليأس من رجوعها الى حالها الاول ان هو تركها وبقي له بعض رجاء في رجوعها الى تلك الحال ان هو وجد ذلك العضو وأزال الآفة عنه فعزم على شق صدرها وتفتيش ما فيه فاتخذ من كسور الاحجار الصلدة وشقوق القصب اليابسة اشباه السكاكين وشق بها بين أضلاعها حتى قطع اللحم الذي بين الاضلاع وأفضي الى الحجاب المستبطن للاضلاع فرآه قويا فقوى ظنه بان مثل ذلك الحجاب لا يكون الا لمثل ذلك العضو وطمع بانه اذا تجاوزه ألفي مطلوبه فحاول شقه فصعب عليه لعدم الآلات ولانها لم تمكن الا من الحجارة والقصب فاستجدها ثانية واستحدها وتلطف في خرق الحجاب حتى انخرق له فافضى الى الرئة فظن أولا انها مطلوبه فما زال يقلبها ويطلب موضع الآفة

وكان أولا انما وجد منها نصفها الذى هو فى الجانب الواحد فلما رآها مائلة
الى جهة واحدة وكان قد اعتقد ان ذلك العضو لا يكون الا فى الوسط فى
عرض البدن كما هو فى الوسط في طوله فما زال يفتش فى وسط الصدر حتى
ألفي القلب وهو مجال بغشاء فى غاية القوة مربوط بعلائق فى غاية الوثاقة والرئة
مطيفة به من الجهة التي بدأ بالشق منها فقال فى نفسه ان كان لهذا العضو من
الجهة الاخرى مثل ماله من هذه الجهة فهو فى حقيقة الوسط ولا محالة انه مطلوبي
لاسيما مع ما أرى له من حسن الوضع وجمال الشكل وقلة التشنث وقوة اللحم
وانه محجوب بمثل هذا الحجاب الذى لم أر مثله لشئ من الأعضاء فبحث
عن الجانب الاخر من الصدر فوجد فيه الحجاب المستبطن للأضلاع ووجد
الرئة على ماوجده من هذه الجهة فحكم بان ذلك العضو هو مطلوبه فحاول
هتك حجابه وشق شغافه فبكد واستكراه ما قدر على ذلك بعد استفراغ
مجهوده وجرد القلب فرآه مصمتا من كل جهة فنظر هل يرى فيه آفة ظاهرة
فلم يرفيه شيأ فشد عليه يده فتبين به ان فيه تجويفا فقال لعل مطلوبى الاقصى
انما هو فى داخل هذا العضو وأنا حتى الان لم أصل اليه فشق عليه فألفي فيه
تجويفين اثنين أحدهما من الجهة اليمنى والآخر من الجهة اليسرى والذى
من الجهة اليمنى مملوء بعلق منعقد والذي من الجهة اليسرى خال لاشي فيه
فقال لن يعدو مطلبي ان يكون مسكنه أحد هذين البيتين ثم قال أما هذا
البيت الايمن فلا أرى فيه غير هذا الدم المنعقد ولاشك انه لم ينعقد حتى صار
الجسد كله الى هذا الحال اذ كان قد شاهد ان الدماء كلها متى سالت
وخرجت انعقدت وجمدت ولم يكن هذا الا دما كسائر الدماء وأنا أرى هذا
الدم موجودا فى سائر الاعضاء لايختص به عضو دون آخر وأنا ليس مطلوبى

شيأ بهذه الصفة انما مطلوبي الشي الذي يختص به هذا الموضع الذي أجد بي لا أستغني عنه طرفة عين واليه كان انبعاثي من أول واما هذا الدم فكم مرة جرحتني الوحوش في المحاربة فسال مني كثير منه فما ضرني ذلك ولا أفتقدني شيأ من أفعالي فهذا بيت ليس فيه مطلوبي وأما البيت الابسر فاراه خاليا لاشي فيه وما أرى ان ذلك باطل فاني رأيت كل عضو من الاعضاء انما هو لفعل يختص به فكيف يكون هذا البيت على ماشاهدت من شرفه باطلا ما أرى الا ان مطلوبي كان فيه فارتحل عنه واخلاه وعند ذلك طرأ على هذا الجسد من العطلة ماطرأ ففقد الادراك وعدم الحراك فلما رأى أن الساكن في ذلك البيت قد ارتحل قبل انهدامه وتركه وهو بحاله تحقق انه أحرى ان لا يعود اليه بعد ان حدث فيه من الخراب والتخريق ماحدث فصار عنده الجسد كله خسيسا لاقدر له بالاضافة الى ذلك الشي الذي اعتقد في نفسه انه يسكنه مدة ويرحل عنه بعد ذلك فاقتصر على الفكرة في ذلك الشي ماهو وكيف هو وما الذي ربطه بهذا الجسد والى أين صار ومن أي الابواب خرج عند خروجه من الجسد وما السبب الذي أزعجه ان كان خرج مختارا ونشئت فكره في ذلك كله وسلا عن ذلك الجسد وطرحه وعلم ان أمه التي عطفت عليه وأرضعته انما كانت ذلك الشي المرتحل وعنه كانت تصدر تلك الافعال كلها لا هذا الجسد العاطل وان هذا الجسد بجملته انما هو كالالة لذلك وبمنزلة العصى التي اتخذها هو لقتال الوحوش فانتقلت علاقته عن الجسد الى صاحب الجسد ومحركه ولم يبق له شوق الا اليه وفي خلال ذلك نتن ذلك الجسد وفاحت منه روائح كريهة فزادت نفرته عنه وود ان لا يراه ثم انه سنح لنظره

Digitized by Birzeit University Library

غرابان يقتتلان حتى صرع أحدهما الاخر ميتا ثم جعل الحي يبحث في الارض حتى حفر حفرة فواري فيها ذلك الميت بالتراب فقال في نفسه ما أحسن ما صنع هذا الغراب في مواراة جيفة صاحبه وان كان قد أساء في قتله اياه وأنا كنت أحق بالاهتداء الى هذا الفعل بامي فحفر حفرة وألقى فيها جسد أمه وحثى عليها التراب وبقي يتفكر في ذلك الشيء المصرف للجسد ولا يدري ماهو غير انه كان ينظر الى أشخاص الظباء كلها فيراها على شكل أمه وعلى صورتها فكان يغلب على ظنه ان كل واحد منها انما يحركه ويصرفه شيء هو مثل الشيء الذي كان يحرك أمه ويصرفها فكان يألف الظباء ويحن اليها لمكان ذلك الشبه وبقي على ذلك برهة من الزمان يتصفح أنواع الحيوان والنبات ويطوف بساحل تلك الجزيرة ويتطلب هل يجد لنفسه شبيها حسبما يرى لكل واحد من أشخاص الحيوان والنبات أشباها كثيرة فلا يجد شيأ من ذلك وكان يري البحر قد أحدق بالجزيرة من كل جهة فيعتقد انه ليس في الوجود أرض سوى جزيرته تلك واتفق في بعض الأحيان ان اقتدحت نار في أجمة قلخ على سبيل المحاكاة فلما بصر بها رأى منظرا هاله وخلقا لم يعتده قبل فوقف يتعجب منها مليا وما يزال يدنو منها شيأ فشيأ فرأى من النار من الضوء الثاقب والفعل الغالب حتى لا تتعلق بشيء الا أتت عليه وأحالته الى نفسها فحمله العجب بها وبما ركب الله تعالى في طباعه من الجراءة والقوة عزم على ان يمد يده اليها وأراد ان يأخذ منها شيأ فلما باشرها أحرقت يده ولم يستطع القبض عليها فاهتدى الى ان يأخذ قبسا لم تستول النار على جميعه فاخذ بطرفه السليم والنار في طرفه الآخر فتأتى له ذلك وحمله الى موضعه الذي كان يأوي اليه وكان قد خلا في جحر كان استحسنه للسكنى قبل ذلك ثم مازال

يمد تلك النار بالحشيش والحطب الجزل ويتعهدها ليلا ونهارا استحسانا لها وتعجبا منها وكان يزيد أنسه بها ليلا لانها كانت تقوم له مقام الشمس فى الضياء والدفئ فعظم بها ولوعه واعتقد انها أفضل الاشياء التى لديه وكان دائما يراها تتحرك الى جهة فوق وتطلب العلو فغلب على ظنه انها من جملة الجواهر السماوية التي كان يشاهدها وكان يختبر قوتها فى جميع الاشياء بان يلقيها فيها فيراها مستولية عليها إما بسرعة وإما ببطء بحسب قوة استعداد الجسم الذي كان يلقيه للاحتراق أو ضعفه وكان من جملة ماألقى فيها على سبيل الاختبار لقوتها شيأ من أصناف الحيوانات البحرية كان قد ألقاه البحر الى ساحله فلما أنضجت ذلك الحيوان وسطع قتاره تحركت شهوته اليه فأكل منه شيأ فاستطابه فاعتاد بذلك أكل اللحم فصرف الحيلة فى صيد البر والبحر حتى مهر فى ذلك وزادت محبته فى النار اذ تأتى له بها من وجوه الاغتذاء الطيب شئ لم يتأت له قبل ذلك فلما اشتد شغفه بها لما رأى من حسن آثارها وقوة اقتدارها وقع فى نفسه ان الشئ الذى ارتحل من قلب أمه الظبية التى أنشأته كان من جوهر هذا الموجود أو من شئ يجانسه وأكد ذلك فى ظنه ما كان يراه من حرارة الحيوان طول مدة حياته وبرودته من بعد موته وكل هذا دائم لايختل وما كان يجده فى نفسه من شدة الحرارة عند صدره بازاء الموضع الذي كان قد شق عليه من الظبية فوقع فى نفسه انه لو أخذ حيوانا وشق قلبه ونظر الى ذلك التجويف الذى صادفه خاليا عند ماشق عليه فى أمه الظبية لرآه فى هذا الحيوان الحى وهو مملوء بذلك الشئ الساكن فيه ويحقق هل هو من جوهر النار وهل فيه شئ من الضوء والحرارة أم لا فعمد الى بعض الوحوش واستوثق منه كتافا وشقه على الصفة التي شق بها الظبية حتى

Digitized by Birzeit University Library

وصل الى القلب فقصد أولا الى الجهة اليسرى منه وشقها فرأي ذلك الفراغ مملوءا بهواء بخاري يشبه الضباب الابيض فادخل أصبعه فيه فوجده من الحرارة في حد كاد يحرقه ومات ذلك الحيوان على الفور فصح عنده ان ذلك البخار الحار هو الذى كان يحرك هذا الحيوان وان فى كل شخص من أشخاص الحيوانات مثل ذلك ومتي انفصل عن الحيوان مات ثم تحركت فى نفسه الشهوة للبحث عن سائر أعضاء الحيوان وترتيبها وأوضاعها وكيفيتها وكيفية ارتباط بعضها ببعض وكيف تستمد من هذا البخار الحار حتي تستمر لها الحياة به وكيف بقاء هذا البخار المدة التي تبقي ومن أين يستمد وكيف لاتنفد حرارته فتتبع ذلك كله بتشريح الحيوانات الاحياء والاموات ولم يزل ينعم النظر فيها ويجيد الفكرة حتى بلغ فى ذلك كله مبلغ كبار الطبيعيين فتبين له ان كل شخص من أشخاص الحيوان وان كان كثيرا باعضائه وتفنن حواسه وحركاته فانه واحد بذلك الروح الذي مبدؤه من قرار واحد وانقسامه فى سائر الاعضاء منبعث منه وان جميع الاعضاء انما هى خادمة له أومؤدية عنه وان منزلة ذلك الروح في تصريف الجسد كمنزلة من يحارب الاعداء بالسلاح التام أو يصيد جميع صيد البحر والبر فيعد لكل جنس آلة يصيده بها والتى يحارب بها تنقسم الى مايدفع بها نكاية غيره والى ماينكي بها غيره وكذلك آلات الصيد تنقسم الى مايصلح لحيوان البحر والي مايصلح لحيوان البر وكذلك الاشياء التي يشرح بها تنقسم الي مايصلح للشق والى مايصلح للكسر والى ما يصلح للثقب والبدن واحد وهو يصرف ذلك انحاء من التصريف بحسب ماتصلح له كل آلة وبحسب الغايات التى تلتمس بذلك التصريف كذلك ذلك الروح الحيواني واحد واذا عمل بآلة العين

كان فعله ابصارا واذا عمل بآلة الأذن كان فعله سمعا واذا عمل بآلة الأنف كان فعله شما واذا عمل بآلة اللسان كان فعله ذوقا واذا عمل بالجلد واللحم كان فعله لمسا واذا عمل بالعضو كان فعله حركة واذا عمل بالكبد كان فعله غذاء واغتذاء ولكل واحد من هذه أعضاء تخدمه ولا يتم لشئ من هذه فعل الا بما يتصل اليها من ذلك الروح على الطرق التي تسمى عصبا ومتى انقطعت تلك الطرق أو انسدت تعطل فعل ذلك العضو وهذه الاعصاب انما تستمد الروح من بطون الدماغ والدماغ يستمد الروح من القلب والدماغ فيه أرواح كثيرة لانه موضع تتوزع فيه أقسام كثيرة فأي عضو عدم هذا الروح بسبب من الاسباب تعطل فعله وصار بمنزلة الالة المطرحة التي لا يصرفها الفاعل ولا ينتفع بها فان خرج هذا الروح بجملته عن الجسد أو فني أو تحلل بوجه من الوجوه تعطل الجسد كله وصار الي حالة الموت فانتهى به النظر الى هذا الحد من النظر على رأس ثلاثة أسابيع من منشئه وذلك أحد وعشرون عاما وفي خلال هذه المدة المذكورة تفتن في وجوه حيله واكتسي بجلود الحيوانات التي كان يشرحها واحتذى بها واتخذ الخيوط من الاشعار ولحا قصب الخطمية والخبازي والقنب وكل نبات ذي خيط وكان أصل اهتدائه الى ذلك انه أخذ من الحلفاء وعمل خطاطيف من الشوك القوي والقصب المحدد على الحجارة واهتدي الى البناء بما رأى من فعل الخطاطيف فاتخذ مخزنا وبيتا لفضلة غذائه وحصن عليه بباب من القصب المربوط بعضه الى بعض لئلا يصل اليه شئ من الحيوانات عند مغيبه عن تلك الجهة في بعض شؤنه واستأنف جوارح الطير ليستعين بها في الصيد واتخذ الدواجن لينتفع ببيضها وفراخها واتخذ من صياصي البقر الوحشية شبه الاسنة وركبها في القصب

القوى وفى عصى الزان وغيرها واستعان فى ذلك بالنار وبحروف الحجارة
حتى صارت شبه الرماح واتخذ ترسه من جلود مضاعفة كل ذلك لما رأى من
عدمه السلاح الطبيعى ولما رأى ان يده تفى له بكل مافاته من ذلك وكان
لايقاومه شئ من الحيوانات على اختلاف أنواعها الا انها كانت تفر عنه
فتعجزه هربا ففكر فى وجه الحيلة فى ذلك فلم ير شيأ أنجح له من ان يتألف
بعض الحيوانات الشديدة العدو ويحسن اليها بالغذاء الذى يصلح لها حتى
يتأتى له الركوب عليها ومطاردة سائر الاصناف بها وكان بتلك الجزيرة خيل
برية وحمر وحشية فاتخذ منها مايصلح له وراضها حتى كمل له بها غرضه وعمل
عليها من الشرك والجلود أمثال الشكائم والسروج فتأتى له بذلك ماأمله من
طرد الحيوانات التى صعبت عليه الحيلة فى أخذه وانما تفنن فى هذه الامور
كلها فى وقت اشتغاله بالتشريح وشهوته فى وقوفه على خصائص أعضاء الحيوان
وبهذا تختلف وذلك فى المدة التى حددنا منتهاها باحد وعشرين عاما * ثم انه
بعد ذلك أخذ فى مآخذ من النظر فتصفح جميع الاجسام التى فى عالم الكون
والفساد من الحيوانات على اختلاف أنواعها والنبات والمعادن وأصناف
الحجارة والتراب والماء والبخار والثلج والبرد والدخان والجليد واللهيب والحر
فرأى لها أوصافا كثيرة وأفعالا مختلفة وحركات متفقة ومتضادة وأنعم النظر
فى ذلك والتشبث فرأى انها تتفق ببعض الصفات وتختلف ببعض وانها من
الجهة التى تتفق بها واحدة ومن الجهة التى تختلف فيها متغايرة ومتكثرة
فكان تارة ينظر خصائص الاشياء ومايتفرد به بعضها عن بعض فتكثر عنده
كثرة تخرج عن الحصر وينتشر له الوجود انتشارا لايضبط وكانت تتكثر
عنده أيضا ذاته لانه كان ينظر الى اختلاف أعضائه وان كل واحد منها منفرد

Digitized by Birzeit University Library

بفعل وصفة تخصه وكان ينظر الى كل عضو منها فيرى انه يحتمل القسمة الى أجزاء كثيرة جدا فيحكم على ذاته بالكثرة وكذلك على ذات كل شيء ثم كان يرجع الى نظر آخر من طريق ثان فيري ان أعضاءه وان كانت كثيرة فهي متصلة كلها بعضها ببعض لا انفصال بينها بوجه، فهي في حكم الواحد وانها لا تختلف الا بحسب اختلاف أفعالها وان ذلك الاختلاف انما هو بسبب ما يصل اليها من قوة الروح الحيواني الذي انتهى اليه نظره أولا وان ذلك الروح واحد في ذاته وهو أيضا حقيقة الذات وسائر الاعضاء كلها كالآلات فكانت تتحد عنده ذاته بهذا الطريق ثم كان ينتقل الى جميع أنواع الحيوان فيري كل شخص منها واحدا بهذا النوع من النظر ثم كان ينظر الى نوع منها كالظباء والخيل والحمر وأصناف الطير صنفا صنفا فكان يري أشخاص كل نوع يشبه بعضه بعضا في الاعضاء الظاهرة والباطنة والادراكات والحركات والمنازع ولا يري بينها اختلافا الا في أشياء يسيرة بالاضافة الى ما اتفقت فيه وكان يحكم بان الروح الذي لجميع ذلك النوع شيء واحد وانه لم يختلف الا لانه انقسم علي قلوب كثيرة وانه لو أمكن ان يجمع جميع الذي افترق في تلك القلوب منه ويجعل في وعاء واحد لكان كله شيأ واحدا بمنزلة ماء واحد وشراب واحد تفرق علي أوان كثيرة ثم يجمع بعد ذلك فهو في حالتي تفريقه وجمعه شيء واحد وانما عرض له التكثر بوجه ما فكان يري النوع كله بهذا النظر واحدا ويجعل كثرة أشخاصه بمنزلة كثرة أعضاء الشخص الواحد التي لم تكن كثيرة في الحقيقة ثم كان يحضر أنواع الحيوان كلها في نفسه ويتأملها فيراها تتفق في أنها تحس وتتغذي وتتحرك بالارادة الى أي جهة شاءت وكان قد علم ان هذه الافعال هي أخص أفعال الروح الحيواني به وان

Digitized by Birzeit University Library

سائر الاشياء التي تختلف بها بعد هذا الاتفاق ليست شديدة الاختصاص بالروح الحيواني ٠ فظهر له بهذا التأمل ان الروح الحيواني الذي لجميع جنس الحيوان واحد بالحقيقة وان كان فيه اختلاف يسير اختص به نوع دون نوع بمنزلة ماء واحد مقسوم على أوان كثيرة بعضه أبرد من بعض وهو في أصله واحد وكل ما كان في طبقة واحدة من البرودة فهو بمنزلة اختصاص ذلك الروح الحيواني بنوع واحد وبعد ذلك فكما ان ذلك الماء كله واحد فكذلك الروح الحيواني واحد وان عرض له التكثر بوجه ما فكان يرى جنس الحيوان كله واحدا بهذا النوع من النظر ٠ ثم كان يرجع الى أنواع النبات على اختلافها فيرى كل نوع منها تشبه أشخاصه بعضها بعضا في الاغصان والورق والزهر والثمر والافعال فكان يقيسها بالحيوان ويعلم ان لها شيأ واحدا اشتركت فيه هو لها بمنزلة الروح للحيوان وأنها بذلك الشيء واحد وكذلك كان ينظر الى جنس النبات كله فيحكم باتحاده بحسب ما يراه من اتفاق فعله في أنه يغتذي وينمو ثم كان يجمع في نفسه جنس الحيوان وجنس النبات فيراهما جميعا منفقين في الاغتذاء والنمو الا أن الحيوان يزيد على النبات بفضل الحس والادراك والتحرك وربما ظهر في النبات شيء شبيه به مثل تحول وجوه الزهر الى جهة الشمس وتحرك عروقه الى جهة الغذاء واشباه ذلك فظهر له بهذا التأمل ان النبات والحيوان شيء واحد بسبب شيء واحد مشترك بينهما هو في أحدهما أتم وأكمل وفي الآخر قد عاقه عائق ما وان ذلك بمنزلة ماء واحد قسم بقسمين أحدهما جامد والآخر سيال فيتحد عنده النبات والحيوان ٠ ثم ينظر الى الاجسام التي لا تحس ولا تغتذي ولا تنمو من الحجارة والتراب والماء والهواء واللهب فيرى انها أجسام مقدرها طول وعرض

Digitized by Birzeit University Library

وعمق وانها لاتختلف الا ان بعضها ذولون و بعضها لالون له وبعضها حار وبعضها بارد ونحو ذلك من الاختلاف وكان يرى ان الحار منها يصير باردا والبارد يصير حارا وكان يرى الماء يصير بخارا والبخار يصير ماء والاشياء المحترقة تصير جمرا ورمادا وليباود خانا والدخان اذا وافق فى صعوده حجراً انعقد فيه او صار بمنزلة سائر الاشياء الارضية فيظهر له بهذا التأمل ان جميعها شيء واحد فى الحقيقة وان لحقتها الكثرة بوجه ما فذلك مثل ماحدث الكثرة للحيوان والنبات ثم ينظر الى الشيء الذى اتحد به عنده النبات والحيوان فيرى انه جسم مثل هذه الاجسام له طول وعرض وعمق وهو اما حار وا ما بارد كواحد من هذه الاجسام التى لا تحس ولا تتغذى وانما خالفها بافعاله التي تظهر عنه بالالات الحيوانية والنباتية لاغير ولعل تلك الافعال ليست ذاتية وانما تسري اليه من شيء آخر ولو سرت الى هذه الاجسام الاخر لكانت مثله فكان ينظر اليه بذاته مجردا عن هذه الافعال التى تظهر بادىء الرأي انها صادرة عنه فكان يري انه ليس الاجسام من هذه الاجسام فيظهر له بهذا التأمل ان الاجسام كلها شيء واحد حيها وجمادها متحركها وساكنها الا انه يظهر ان لبعضها أفعالا بالات ولا يدري هل تلك الافعال ذاتية لها أو سارية اليها من غيرها وكان فى هذه الحال لايرى شيأ غير الاجسام فكان بهذا الطريق يرى الموجود كله شيأ واحدا وبالنظر الاول يرى الموجود كثرة لاتنحصر ولا تتناهي و بقي بحكم هذه الحالة مدة ثم انه تأمل جميع الاجسام حيها وجمادها وهي التي هي عنده تارة شيء واحد وتارة كثيرة لانهاية لها فرأى ان كل واحد منها لايخلوا من أحد أمرين اما أن يتحرك الى جهة العلو مثل الدخان واللهيب والهواء اذا حصل تحت الماء واما أن يتحرك الى الجهة المضادة

Digitized by Birzeit University Library

تلك الجهة وهي جهة السفل مثل الماء وأجزاء الارض وأجزاء الحيوان والنبات وأن كل جسم من هذه الاجسام لن يعري عن هاتين الحركتين وانه لا يسكن الا اذا منعه مانع يعوقه عن طريقه مثل الحجر النازل يصادف وجه الارض صلبا فلا يمكنه ان يخرقه ولو أمكنه ذلك لما انثني عن حركته فيما يظهر ولذلك اذا رفعته وجدته يتحامل عليك بميله الى جهة السفل طالبا للنزول وكذلك الدخان في صعوده لا ينثني الا ان يصادف قبة صلبة تحبسه فحينئذ ينعطف يمينا وشمالا ثم اذا تخلص من تلك القبة خرق الهواء صاعدا لان الهواء لا يمكنه ان يحبسه وكان يري ان الهواء اذا ملئ به رق جلد وربط ثم غوص تحت الماء طلب الصعود وتحامل على من يمسكه تحت الماء ولا يزال يفعل ذلك حتى يوافي موضع الهواء وذلك بخروجه من تحت الماء فحينئذ يسكن ويزول عنه ذلك التحامل والميل الي جهة العلو الذي كان يوجد منه قبل ذلك ونظر هل يجد جسما يعرى عن احدى هاتين الحركتين أو الميل الى أحداهما في وقت ما فلم يجد ذلك في الاجسام التي لديه وانما طلب ذلك لانه طمع ان يجده فيعرى طبيعة الجسم من حيث هو جسم دون ان يقترن به وصف من الاوصاف التي هي منشأ التكثر * فلما اعياه ذلك ونظر الي الاجسام التي هي أقل الاجسام حملا للاوصاف فلم يرها تعرى عن أحد هذين الوصفين بوجه وهما اللذان يعبر عنهما بالثقل والخفة فنظر الى الثقل والخفة هل هما للجسم من حيث هو جسم أو هما لمعنى زائد على الجسمية فظهر له انهما لمعنى زائد على الجسمية لانهما لو كانا للجسم من حيث هو جسم لما وجد جسم الا وهما له ونحن نجد الثقيل لا توجد فيه الخفة والخفيف لا يوجد فيه الثقيل وهما لا محالة جسمان ولكل واحد منهما معنى منفرد به عن الآخر زائد على جسميته وذلك المعنى

Digitized by Birzeit University Library

هو الذي به غاير كل واحد منهما الآخر ولولا ذلك لكانا شيأ واحدا من جميع الوجوه فتبين له ان حقيقة كل واحد من الثقيل والخفيف مركبة من معنيين أحدهما ما يقع فيه الاشتراك منهما جميعا وهو معنى الجسمية والآخر ما تنفرد به حقيقة كل واحد منهما عن الآخر وهو إما الثقل فى أحدهما وإما الخفة فى الآخر المقترنان بمعنى الجسمية أى المعنى الذى يحرك أحدهما علوا والاخر سفلا . وكذلك نظر الى سائر الأجسام من الجمادات والأحياء فرأى ان حقيقتها وجود كل واحد منهما مركبة من معنى الجسمية ومن شئ آخر زائد على الجسمية اما واحد واما أكثر من واحد فلاحت له صور الأجسام على اختلافها وهو أول ما لاح له من العالم الى الروحانى اذ هى صور لا تدرك بالحس وانما تدرك بضرب من النظر العقلى ولاح له فى جملة ما لاح من ذلك أن الروح الحيوانى الذى مسكنه القلب وهو الذى تتقدم شرحه أولا لا بد له أيضا من معنى زائد على جسميته يصلح بذلك المعنى لأن يعمل هذه الاعمال الغريبة التى تختص به من ضروب الاحساسات وفنون الادراكات وأصناف الحركات وذلك المعنى هو صورته وفصله الذي انفصل به عن سائر الأجسام وهو الذي يعبر عنه النظار بالنفس الحيوانية . وكذلك للشئ الذي يقوم للنبات مقام الحار الغريزي للحيوان شئ يخصه هو فصله وهو الذى يعبر عنه النظار بالنفس النباتية . وكذلك لجميع أجسام الجمادات وهي ماعدا الحيوان والنبات مما فى عالم الكون والفساد شئ يخصها به يفعل كل واحد منها فعله الذي يختص به مثل صنوف الحركات وصدور الكيفيات المحسوسة عنها وذلك الشئ هو فصل كل واحد منها وهو الذى يعبر النظار عنه بالطبيعة . فلما وقف بهذا النظر على أن حقيقة الروح الحيوانى الذي كان تشوقه اليه أبدا مركبة

Digitized by Birzeit University Library

من معنى الجسمية ومن معنى آخر زائد على الجسمية وأن معنى هذه الجسمية مشترك له ولسائر الاجسام والمعنى الآخر المقترن به ينفرد به هو وحده هان عنده معنى الجسمية فاطرحه وتعلق فكره بالمعنى الثاني وهو الذي يعبر عنه بالنفس فتشوق الى التحقق به فالتزم الفكرة فيه وجعل مبدأ النظر فى ذلك تصفح الاجسام كلها لا من جهة ماهى أجسام بل من جهة ماهي ذوات صور تلزم عنها خواص وينفصل بها بعضها عن بعض فتتبع ذلك وحصره فى نفسه فرأي أن جملة الاجسام تشترك فى صور تصدر عنها الافعال ورأي فريقا من تلك الجملة مع مشاركته لها فى تلك الصورة يزيد عليها بصورة أخري تصدر عنها أفعال خاصة به ورأي طائفة من ذلك الفريق مع مشاركتها له فى الصورة الاولي والثانية تزيد عنه بصورة ثالثة تصدر عنها أفعال خاصتها بها . مثل ذلك ان الاجسام الأرضية كلها مثل التراب والحجارة والمعادن والنبات والحيوان وسائر الاجسام الثقيلة هي جملة واحدة تشترك فى صورة واحدة تصدر عنها الحركه الى أسفل مالم يعقها عائق عن النزول ومتى حركت الى جهة العلو بالقسر ثم تركت تحركت بصورتها الى أسفل . وفريق من هذه الجملة وهو النبات والحيوان مع مشاركته الجملة المتقدمة فى تلك الصورة يزيد عليها صورة أخري يصدر عنها التغذي والنمو * والتغذي هو ان يخلف المغتذي بدل ما تحلل بالفعل منه بواسطة القوة الغاذية التي تحيل ما حصل له كمال الاستعداد بسبب القوة الهاضمة من الغذاء بالقوة الواصل بواسطة الجاذبية الى مشاكلة جوهر المغتذي حفظا لشخصه وتكميلا لمقداره * والنمو هو الزيادة بواسطة القوة النامية وهى التى تزيد فى أقطار الجسم أعنى الطول والعرض والعمق على التناسب الطبيعي بما تدخل فى أجزائه من الغذاء * فهذان الفعلان

Digitized by Birzeit University Library

عامان للنبات والحيوان وهما لامحالة صادران عن صورة مشتركة لهما وهي المعبر عنها بالنفس . وطائفة من هذا الفريق وهو الحيوان خاصة مع مشاركته الفريق المتقدم في الصورة الأولي والثانية تزيد عليه بصورة ثالثة يصدر عنها الحس والتنقل من حيز الى آخر . ورأى كل نوع من أنواع الحيوان له خاصية يمتاز بها عن سائر الانواع وينفصل بها متميزا عنها فعلم ان ذلك صادر له عن صورة تخصه هي زائدة عن معنى الصورة المشتركة له ولسائر الحيوان وكذلك لكل واحد من أنواع النبات مثل ذلك . فتبين له ان هذه الأجسام المحسوسات التي في عالم الكون والفساد بعضها يتئم حقيقة من معان كثيرة زائدة على معنى الجسمية وبعضها من معان أقل وعلم ان معرفة الأقل أسهل من معرفة الاكثر فطلب أولا الوقوف على حقيقة الشيء الذي تلتئم حقيقته من أقل الاشياء ورأى ان الحيوان والنبات لاتلتئم حقيقتاهما الا من معان كثيرة لتفنن أفعالهما فأخر التفكر في صورهما وكذلك رأي ان أجزاء الارض بعضها أبسط من بعض فقصد منها ابسط ماقدر عليه وكذلك رأى ان الماء شيء قليل التركيب لقلة ما يصدر عن صورته من الافعال وكذلك رأى النار والهواء . وقد كان سبق الى ظنه أولا ان هذه الاربعة يستحيل بعضها الى بعض وان لها شيا واحدا تشترك فيه وهو معنى الجسمية وان ذلك الشيء ينبغي ان يكون خلوا من المعاني التي تميز بها كل واحد من الاربعة عن الآخر فلا يمكن ان يتحرك الى فوق ولا الى أسفل ولا ان يكون حارا ولا باردا ولا ان يكون رطبا ولا يابسا لأن كل واحد من هذه الاوصاف لايعم جميع الاجسام فليست اذن للجسم بما هو جسم فاذا أمكن وجود جسم لاصورة فيه زائدة على الجسمية فليس تكون فيه صفة من هذه الصفات ولا يمكن ان تكون فيه صفة

Digitized by Birzeit University Library

الا وهي تعم سائر الاجسام المتصورة بضروب الصور فنظر هل يجد وصفا واحدا يعم جميع الاجسام حيها وجامدها فلم يجد شيأ يعم الأجسام كلها الا معنى الامتداد الموجود فى جميعها فى الاقطار الثلاثة التى يعبر عنها بالطول والعرض والعمق فعلم ان هذا المعنى هو للجسم من حيث هو جسم لكنه لم يتأت له بالحس وجود جسم بهذه الصفة وحدها حتى لا يكون فيه معنى زائد على الامتداد المذكور ويكون بالجملة خلوا من سائر الصور ثم تفكر فى هذا الامتداد الى الاقطار الثلاثة هل هو معنى الجسم بعينه وليس ثم معنى آخر أو ليس كذلك فرأى ان وراء هذا الامتداد معنى آخر هو الذى يوجد فيه هذا الامتدادا وان الامتداد وحده لا يمكن ان يقوم بنفسه كما ان ذلك الشيء الممتد يمكن ان يقوم بنفسه دون امتداد واعتبر ذلك ببعض الأجسام المحسوسة ذوات الصور كالطين مثلا فرأى انه اذا عمل منه شكل كالكرة مثلا كان له طول وعرض وعمق على قدره ثم ان تلك الكرة بعينها لو أخذت وردت الى شكل مكعب أو بيضي لتبدل ذلك الطول وذلك العرض وذلك العمق وصارت على قدر آخر غير الذي كانت عليه والطين واحد بعينه لم يتبدل غيرانه لا بد له من طول وعرض وعمق على أى قدر كان ولا يمكن ان يعرى عنها غير انها تتعاقبها عليه تبين له انها معنى على خياله ولكونه لا يعري بالجملة عنها تبين له انها من حقيقته . فلاح له بهذا الاعتبار ان الجسم بما هو جسم مركب على الحقيقة من معنيين . أحدهما يقوم منه مقام الطين للكرة فى هذا المثال . والآخر يقوم مقام طول الكرة وعرضها وعمقها أو المكعب أو أى شكل كان به وانه لا يفهم الجسم الا مركبا من هذين المعنيين وان أحدهما لا يستغنى عن الآخر لكن الذى يمكن ان يتبدل ويتعاقب على أوجه كثيرة

Digitized by Birzeit University Library

وهو معني الامتداد يشبه الصورة التي لسائر الاجسام ذوات الصور والذى يثبت على حال واحدة وهو الذي ينزل منزلة الطين المتقدم يشبه معنى الجسمية التي لسائر الاجسام ذوات الصور . وهذا الشئ الذى هو بمنزلة الطين فى هذا المثال هو الذي يسميه النظار المادة والهيولى وهى عارية عن الصور جملة . فلما انتهى نظره الي هذا الحد وفارق المحسوس بعض مفارقة وأشرف على تخوم العالم العقلى استوحش وحن الى ماألفه من عالم الحس فتقهقر قليلا وترك الجسم على الاطلاق اذ هو أمر لا يدركه الحس ولا يقدر على تناوله وأخذ أبسط الاجسام المحسوسة التي شاهدها وهي تلك الاربعة التى كان قد وقف نظره عليها فأول مانظر الى الماء فرأي انه اذا خلى وماتقتضيه صورته ظهر منه برد محسوس وطلب النزول الى أسفل فاذا سخن اما بالنار واما بحرارة الشمس زال عنه البرد أولا و بقى فيه طلب النزول فاذا أفرط عليه بالتسخين زال عنه طلب النزول الى أسفل وصار يطلب الصعود الى فوق فزال عنه بالجملة الوصفان اللذان كانا أبدا يصدران عنه عن صورته ولم يعرف من صورته أكثر من صدور هذين الفعلين عنها فلما زال هذان الفعلان بطل حكم الصورة فزالت الصورة المائية عن ذلك الجسم عند ماظهرت منه أفعال من شأنها ان تصدر عن صورة أخرى وحدثت له صورة أخرى بعد ان لم تكن وصدر عنه بها أفعال لم يكن من شأنها ان تصدر عنه وهو بصورته الأولي . فعلم بالضرورة ان كل حادث لا بد له من محدث فارتسم فى نفسه بهذا الاعتبار فاعل للصورة ارتساما على العموم دون تفصيل . ثم انه تتبع الصور التى كان قد علمها قبل ذلك صورة صورة فرأى انها كلها حادثة وانها لا بد لها من فاعل ثم انه نظر الي ذوات الصور فرأى أنها شئ أكثر من

Digitized by Birzeit University Library

استعداد الجسم لان يصدر عنه ذلك الفعل مثل الماء فانه اذا أفرط عليه التسخين استعد للحركة الى فوق وصلح لها فذلك الاستعداد هو صورته اذ ليس ههنا الاجسم وأشياء تحس عنه بعد ان لم تكن مثل الكيفيات والحركات وفاعل يحدثها بعد ان لم تكن فصلوح الجسم لبعض الحركات دون بعض هو استعداده بصورته ولاح له مثل ذلك في جميع الصورة فتبين له ان الافعال الصادرة عنها ليست فى الحقيقة لها وانما هي لفاعل يفعل بها الافعال المنسوبة اليها وهذا المعنى الذي لاح له هو قول رسول الله صلى الله عليه وسلم كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به وفى محكم التنزيل (فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ومارميت اذرميت ولكن الله رمي) فلما لاح له من أمر هذا الفاعل ما لاح على الاجمال دون تفصيل حدث له شوق حثيث الى معرفته على التفصيل وهو بعد لم يكن فارق عالم الحس فجعل يطلب هذا الفاعل المختار من جهة المحسوسات وهو لا يعلم بعد هل هو واحد أو كثير فتصفح جميع الاجسام التى لديه وهي التى كانت فكرته أبدا فيها فرآها كلها تتكون تارة وتفسد أخرى ومالم يقف على فساد جملته وقف علي فساد أجزائه مثل الماء والارض فانه رأى أجزاءها تفسد بالنار وكذلك الهواء رآه يفسد بشدة البرد حتى يتكون منه ثلج فيسيل الماء وكذلك سائر الاجسام التى كانت لديه لم ير منها شيأ بريئا عن الحدوث والافتقار الى الفاعل المختار فاطرحها كلها وانتقلت فكرته الى الاجسام السماوية وانتهى الى هذا النظر علي أس أربعة أسابيع من منشئه وذلك ثمانية وعشرون عاما فعلم ان السماء وما فيها من الكواكب أجسام لانها ممتدة فى الاقطار الثلاثة الطول والعرض والعمق لا ينفك شيء منها عن هذه الصفة وكل مالا ينفك عن هذه الصفة فهو جسم

Digitized by Birzeit University Library

فهى إذن كلها أجسام ثم تفكر هل هي ممتدة الى غير نهاية وذاهبة أبدا فى الطول والعرض والعمق الى غير نهاية أو هي متناهية محدودة بحدود تنقطع عندها ولا يمكن أن يكون وراءها شئ من الامتداد فتحير فى ذلك بعض حيرة . ثم انه بقوة نظره وذكاء خاطره رأى ان جسما لانهاية له باطل وشئ لا يمكن ومعنى لا يعقل وتقوي هذا الحكم عنده بحجج كثيرة سنحت له بينه وبين نفسه وذلك انه قال . أما هذا الجسم السماوي فهو متناه من الجهة التي تلينى والناحية التى وقع عليها حسى فهذا لا أشك فيه لانى أدركه ببصري . واما الجهة التى تقابل هذه الجهة وهي التى بداخلى فيها الشك فانى أيضاً أعلم انه من المحال ان تمتد الى غير نهاية لانى ان تخيلت أن خطين اثنين يبتدآن من هذه الجهة المتناهية ويمران فى سمك الجسم الى غير نهاية حسب امتداد الجسم ثم تخيلت ان أحد هذين الخطين قطع منه جزء كبير من ناحية طرفه المتناهى ثم أخذ ما بقى منه وطبق طرفه الذى كان فيه موضع القطع على طرف الخط الذي لم يقطع منه شئ وطبق الخط المقطوع منه على الخط الذى لم يقطع منه شئ وذهب الذهن كذلك معهما الى الجهة التي يقال انها غير متناهية فاما ان تجد الخطين أبدا يمتدان الى غير نهاية ولا ينقص أحدهما عن الآخر فيكون الذى قطع منه جزء مساويا للذي لم يقطع منه شئ وهو محال واما ان لا يمتد الناقص معه أبدا بل ينقطع دون مذهبه ويقف عن الامتداد معه فيكون متناهيا فاذا رد عليه القدر الذي قطع منه أولا وقد كان متناهيا صار كله متناهيا وحينئذ لا يقصر عن الخط الآخر الذى لم يقطع منه شئ ولا يفضل عليه فيكون اذن مثله وهو متناه فذلك أيضا متناه . فالجسم الذى تفرض فيه هذه الخطوط متناه وكل جسم يمكن أن تفرض فيه هذه الخطوط فكل

جسم متناه فاذا فرضنا أن جسما غير متناه فقد فرضنا باطلا ومحالا . فلما صح عنده بفطرته الفائقة التي تنبهت لمثل هذه الحجة أن جسم السماء متناه أراد ان يعرف على أى شكل هو وكيفية انقطاعه بالسطوح التي تحده فنظر أولا الى الشمس والقمر وسائر الكواكب فرآها كلها تطلع من جهة المشرق وتغرب من جهة المغرب فما كان منها يمر على سمت رأسه رآه يقطع دائرة عظمي ومامال عن سمت رأسه الى الشمال أو الى الجنوب رآه يقطع دائرة أصغر من تلك وما كان أبعد عن سمت الرأس الى أحد الجانبين كانت دائرته أصغر من دائرة ما هو أقرب حتى كانت أصغر الدوائر التي تتحرك عليها الكواكب دائرتين اثنتين احداهما حول القطب الجنوبي وهي مدار سهيل والأخري حول القطب الشمالي وهي مدار الفرقدين ولما كان مسكنه على خط الاستواء الذى وصفناه أولا كانت هذه الدوائر كلها قائمة على سطح أفقه ومتشابهة الاحوال في الجنوب والشمال وكان القطبان معا ظاهرين له وكان يترقب اذا طلع كوكب من الكواكب على دائرة كبيرة وطلع كوكب آخر على دائرة صغيرة وكان طلوعهما معا فكان يرى غروبهما معا وأطرد له ذلك فى جميع الكواكب وفى جميع الاوقات فتبين له بذلك ان الفلك على شكل الكرة وقوى ذلك فى اعتقاده مارآه من رجوع الشمس والقمر وسائر الكواكب الي المشرق بعد مغيبها بالمغرب وما رآه أيضا من انها تظهر لبصره على قدر واحد من العظم فى حال طلوعها وتوسطها وغروبها وانها لو كانت حركتها على غير شكل الكرة لكانت لا محالة فى بعض الاوقات أقرب الى بصره منها فى وقت آخر ولو كانت كذلك لكانت مقاديرها واعظامها تختلف عند بصره فيراها في حال القرب أعظم مما يراها فى حال البعد لاختلاف أبعادها

Digitized by Birzeit University Library

عن مركزه حينئذ بخلافها على الاول فلما لم يكن شئ من ذلك تحقق عنده كرية الشكل ومازال يتصفح حركة القمر فيراها آخذة من المغرب الى المشرق وحركات الكواكب السيارة كذلك حتى تبين له قدر كبير من عالم الهيئة وظهر له ان حركاتها لا تكون الا بافلاك كثيرة كلها مضمنة فى فلك واحد هو أعلاها وهو الذي يحرك الكل من المشرق الى المغرب فى اليوم والليلة وشرح كيفية انتقاله ومعرفة ذلك يطول وهو مثبت فى الكتب ولا يحتاج منه فى غرضنا الا للقدر الذى أوردناه . فلما انتهى الى هذه المعرفة ووقف على ان الفلك بجملته وما يحتوى عليه كشئ واحد متصل بعضه ببعض وان جميع الاجسام التى كان ينظر فيها أولا كالارض والماء والهواء والنبات والحيوان وما شاكلها هي كلها فى ضمنه وغير خارجة عنه وانه كله أشبه شئ بشخص من أشخاص الحيوان وما فيه من الكواكب المنيرة هي بمنزلة حواس الحيوان وما فيه من ضروب الافلاك المتصل بعضها ببعض هي بمنزلة أعضاء الحيوان وما فى داخله من عالم الكون والفساد هي بمنزلة ما فى جوف الحيوان من أصناف الفضول والرطوبات التى كثيرا ما يتكون فيها أيضا حيوان كما يتكون فى العالم الاكبر . فلما تبين له انه كله كشخص واحد فى الحقيقة قائم محتاج الى فاعل مختار واتحدت عنده أجزاؤه الكثيرة بنوع من النظر الذى اتحدت به عنده الاجسام التي فى عالم الكون والفساد تفكر فى العالم بجملته هل هو شئ حدث بعد ان لم يكن وخرج الى الوجود بعد العدم أو هو أمر كان موجودا فيما سلف ولم يسبقه العدم بوجه من الوجوه فتشكك فى ذلك ولم يترجح عنده أحد الحكمين على الاخر . وذلك انه كان اذا أزمع على اعتقاد القدم اعترضته عوارض كثيرة من استحالة وجود لا نهاية له بمثل

Digitized by Birzeit University Library

القياس الذى استحال عنده به وجود جسم لانهاية له ٠ وكذلك كان يرى ان هذا الوجود لايخلو من الحوادث فهو لايمكن تقدمه عليها ومالا يمكن ان يتقدم على الحوادث فهو أيضا محدث ٠ واذ أزمع على اعتقاد الحدوث اعترضته عوارض أخر ٠ وذلك انه كان يري ان معني حدوثه بعد ان لم يكن لايفهم الا على معنى ان الزمان تقدمه والزمان من جملة العالم وغير منفك عنه فاذن لايفهم تأخر العالم عن الزمان ٠ وكذلك كان يقول اذا كان حادثا فلا بد له من محدث وهذا المحدث الذى أحدثه لم أحدثه الآن ولم يحدثه قبل ذلك الطارىء الذى طرأ عليه ولاشىء هنالك غيره التغير حدث فى ذاته فان كان فما الذي أحدث ذلك التغير ومازال يتفكر فى ذلك عدة سنين فتتعارض عنده الحجج ولايترجح عنده أحد الاعتقادين على الآخر فلما أعياه ذلك جعل يتفكر ما الذي يلزم عن كل واحد من الاعتقادين فلعل اللازم عنهما يكون شيأ واحدا فرأي انه ان اعتقد حدوث العالم وخروجه الى الوجود بعد العدم فاللازم عن ذلك ضرورة انه لا يمكن ان يخرج الى الوجود بنفسه وانه لابد له من فاعل يخرجه الى الوجود وان ذلك الفاعل لايمكن ان يدرك بشئ من الحواس لانه لو أدرك بشئ من الحواس لكان جسما من الاجسام ولو كان جسما من الاجسام لكان من جملة العالم وكان حادثا واحتاج الى محدث ولو كان ذلك المحدث الثانى أيضا جسما لاحتاج الى محدث ثالث والثالث الى رابع ويتسلسل ذلك الى غير نهاية وهو باطل فاذن لا بد للعالم من فاعل ليس بجسم واذا لم يكن جسما فلا سبيل الي ادراكه بشئ من الحواس لان الحواس الخمس لا تدرك الا الاجسام أو ما يلحق الاجسام واذن لايمكن ان يحس فلا يمكن ان يتخيل لان التخيل ليس شيأ الا احضار صور المحسوسات

بعد غيبها واذا لم يكن جسما فصفات الاجسام كلها تستحيل عليه وأول صفات الاجسام هو الامتداد فى الطول والعرض والعمق وهو منزه عن ذلك وعن جميع ما يتبع هذا الوصف من صفات الاجسام واذا كان فاعلا للعالم فهو لا محالة قادر عليه وعالم به ﴿الا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾ ورأي أيضا انه ان اعتقد قدم العالم وان العدم لم يسبقه وانه لم يزل كما هو فان اللازم عن ذلك ان حركته قديمة لا نهاية لها من جهة الابتداء اذ هى لم يسبقها سكون يكون مبدوها منه وكل حركة لا بد لها من محرك ضرورة والمحرك اما ان يكون قوة سارية فى جسم من الاجسام اما جسم المتحرك نفسه واما جسم آخر خارج عنه واما ان تكون قوة ليست سارية ولا شائعة فى جسم وكل قوة ليست سارية فى جسم وشائعة فيه فانها تنقسم بانقسامه وتتضاعف بتضاعفه مثل الثقل فى الحجر مثلا المحرك له الى أسفل فانه ان قسم الحجر نصفين انقسم ثقله نصفين وان زيد عليه آخر مثله زاد فى الثقل آخر مثله فان أمكن ان يتزايد الحجر أبدا الي غير نهاية كان تزايد هذا الثقل الي غير نهاية وان وصل الحجر الى حد ما من العظم ووقف وصل الثقل أيضا الى ذلك الحد ووقف لكنه قد تبرهن ان كل جسم لا محالة متناه فاذن كل قوة فى جسم لا محالة متناهية فان وجدنا قوة تفعل فعلا لا نهاية له فهى قوة ليست في جسم وقد وجدنا الفلك يتحرك أبدا حركة لا نهاية لها ولا انقطاع اذ فرضناه قديما لا ابتداء له فالواجب على ذلك ان تكون القوة التي تحركه ليست فى جسمه ولا فى جسم خارج عنه فهى اذن لشئ برى عن الاجسام وغير موصوف بشئ من أوصاف الجسمية وقد كان لاح له فى نظره الاول فى عالم الكون والفساد أن حقيقة وجود كل جسم انما هي من جهة صورته لا هيولاه استعداده

لضروب الحركات وان وجوده الذي له من جهة مادته وجود ضعيف لايكاد يدرك فاذن وجود العالم كله انما هو من جهة استعداده لتحريك هذا المحرك البريء عن المادة وعن صفات الاجسام المنزه عن أن يدركه حس أو يتطرق اليه خيال سبحانه واذا كان فاعلا لحركات الفلك علي اختلاف أنواعها فعلا لاتفاوت فيه ولا فتور فهو لامحالة قادر عليه وعالم به فانتهي نظره بهذا الطريق الى ماانتهى اليه بالطريق الاول ولم يضره في ذلك تشككه في قدم العالم أو حدوثه وصح له علي الوجهين جميعا وجود فاعل غير جسم ولا متصل بجسم ولا منفصل عنه ولا داخل فيه ولا خارج عنه اذ الاتصال والانفصال والدخول والخروج هي كلها من صفات الاجسام وهو منزه عنها ولما كانت المادة من كل جسم مفتقرة الى الصورة اذ لاتقوم الابها ولا تثبت لها حقيقة دونها وكانت الصورة لايصح وجودها الا من قبل هذا الفعل المختار تبين له افتقار جميع الموجودات في وجودها الى هذا الفاعل وانه لاقيام لشيء منها الا به فهو اذن علة لها وهي معلولة له سواء كانت محدثة الوجود بعد ان سبقها العدم أو كانت لاابتداء لها من جهة الزمان ولم يسبقها العدم قط فانها علي كلا الحالين معلولة ومفتقرة الى الفاعل متعلقة الوجود به ولولا دوامه لم تدم ولولا وجوده لم توجد ولولا قدمه لم تكن قديمة وهو في ذاته غني عنها وبريء منها وكيف لايكون كذلك وقد تبرهن ان قدرته وقوته غير متناهية وان جميع الاجسام وما يتصل بها أو يتعلق بها ولو بعض تعلق هو متناه منقطع فاذن العالم كله بما فيه من السموات والكواكب وما بينها وما فوقها وما تحتها فعله وخلقه ومتأخر عنه بالذات وان كانت غير متأخرة

بالزمان كما انك اذا أخذت فى قبضتك جسما من الاجسام ثم حركت يدك فان ذلك الجسم لامحالة يتحرك تابعا لحركة يدك حركة متأخرة عن حركة يدك تأخرا بالذات وان كانت لم تتأخر بالزمان عنها بل كان ابتداؤهما معا فكذلك العالم كله معلول ومخلوق لهذا الفاعل بغير زمان ﴿انما أمره اذا أراد شيأ أن يقول له كن فيكون﴾ فلما رأي ان جميع الموجودات فعله تصفحها من قبل ذا تصفحا على طريق الاعتبار فى قدرة فاعلها والتعجب من غريب صنعته ولطيف حكمته ودقيق علمه فتبين له فى أقل الاشياء الموجودة فضلا عن أكثرها من آثار الحكمة وبدائع الصنعة ماقضي منه كل العجب وتحقق عنده ان ذلك لا يصدر الا عن فاعل مختار فى غاية الكمال ﴿لايعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الارض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر﴾ ثم تامل فى جميع أصناف الحيوان كيف أعطى كل شيء خلقه ثم هداه لاستعماله فلولا انه هداه لاستعمال تلك الاعضاء التي خلقت له فى وجوه المنافع المقصودة به لما انتفع بها الحيوان وكانت كلا عليه فعلم بذلك انه أكرم الكرماء وأرحم الرحماء ، ثم انه مهما نظر شيأ من الموجودات له حسن أو بهاء أو كمال أو قوة أو فضيلة من الفضائل أى فضيلة كانت تفكر وعلم انها من فيض ذلك الفاعل المختار جل جلاله ومن جوده ومن فضله فعلم ان الذى له هو فى ذاته أعظم منها وأكمل وأتم وأحسن وأبهى وأدوم وانه لانسبة لهذه الى تلك فما زال يتتبع صفات الكمال كلها فيراها له وصادرة عنه ويرى انه أحق بها من كل من يوصف بها دونه وتتبع صفات النقص كلها فيراه بريئا منها ومنزها عنها وكيف لا يكون بريئا عنها وليس معنى النقص الا العدم المحض أو مايتعلق بالعدم وكيف يكون للعدم تعلق أو تلبس بمن هو الموجود المحض

الواجب لوجود بذاته المعطى لكل ذي وجود وجوده فلا وجود الا هو فهو الوجود وهو الكمال وهو التمام وهو الحسن وهو البهاء وهو القدرة وهو العلم وهو هو وكل شئ هالك الا وجهه فانتهت به المعرفة الى هذا الحد على رأس خمسة أسابيع من منشئه وذلك خمسة وثلاثون عاما وقد رسخ في قلبه من أمر هذا الفاعل ماشغله عن الفكرة في كل شيء الا فيه وذهل عما كان فيه من تصفح الموجودات والبحث عنها حتى صار بحيث لا يقع بصره على شئ من الاشياء الا ويرى فيه أثر الصنعة فينتقل بفكره على الفور الى الصانع ويترك المصنوع حتى اشتد شوقه اليه ونزعج قلبه بالكلية عن العالم الادنى المحسوس وتعلق بالعالم الارفع المعقول فلما حصل له العلم بهذا الموجد الرفيع الثابت الوجود الذى لا سبب لوجوده وهو سبب الوجود جميع الاشياء أراد أن يعلم بأي شيء حصل له هذا العلم وبأي قوة أدرك هذا الموجود فتصفح حوسه كلها وهى السمع والبصر والشم والذوق واللمس فرأى انها كلها لا تدرك شيأ الا جسما أو ماهو في جسم وذلك ان السمع انما يدرك المسموعات وهى ما يحدث من تموج الهواء عند تصادم الاجسام والبصر انما يدرك الالوان والشم يدرك الروائح والذوق يدرك الطعوم واللمس يدرك الصلابة واللين والخشونة والملاسة وكذلك القوة الخيالية لا تدرك شيأ الا ان يكون له طول وعرض وعمق وهذه المدركات كلها من صفات الاجسام وليس لهذه الحواس ادراك شئ سواها وذلك قوى لانها شائعة في الاجسام ومنقسمة بانقسامها فهى لذلك لا تدرك الا جسما منقسما لان هذه القوة اذا كانت شائعة في شئ منقسم فلا محالة انها أدركت شيأ من الاشياء فانه ينقسم بانقسامها فاذن كل قوة في جسم فانها لا تدرك الا جسما أو ماهو في جسم وقد تبين ان هذا

الموجود الواجب الوجود بريء من صفات الأجسام من جميع الجهات فاذن لاسبيل الى ادراكه الا بشئ ليس بجسم ولا هو قوة فى جسم ولا تعلق له بوجه من الوجوه بالاجسام ولا هو داخل فيها ولا خارج عنها ولامتصل بها ولا منفصل عنها وقد كان تبين انه ادركه بذاته ورسخت المعرفة به عنده فتبين له بذلك ان ذاته التي أدركه بها أمر غير جسماني ولا يجوز عليه شئ من صفات الاجسام وان كل مايدركه من ظاهر ذاته من الجسميات ليست حقيقة ذاته وانما حقيقة ذاته ذلك الشئ الذي أدرك به الموجود المطلق الواجب الوجود فلما علم ان ذاته ليست هذه المتجسمة التى يدركها بحواسه ويحيط بها أديمه هان عنده بالجملة جسمه وجعل يتفكر فى تلك الذات الشريفة التى أدرك بها ذلك الموجود الشريف الواجب الوجود ونظر بذاته فى تلك الذات الشريفة هل يمكن ان تبيد أوتفسد وتضمحل أو هي دائمة البقاء فرأي ان الفساد والاضمحلال انما هو من صفات الاجسام بان تخلع صورة وتلبس أخرى مثل الماء اذا صار هواء والهواء اذا صار ماء والنبات اذا صار ترابا أو رمادا والتراب اذا صار نباتا فهذا هو معنى الفساد وأما الشئ الذى ليس بجسم ولا يحتاج فى قوامه الى الجسم وهو منزه بالجملة عن الجسميات فلا يتصور فساده البتة فلما ثبت له ان ذاته الحقيقية لايمكن فسادها أراد ان يعلم كيف يكون حالها اذا أطرحت البدن وتخلت عنه وقد كان تبين له انها ان لاتطرحه الا اذا لم يصلح آلة لها فتصفح جميع القوى المدركة فرأى كل واحدة منها تارة تكون مدركة بالقوة وتارة تكون مدركة بالفعل مثل العين فى حال تغميضها وإعراضها عن المبصر فانها تكون مدركة بالقوة ومعنى مدركة بالقوة انها لاتدرك الآن وتدرك فى المستقبل وفى حال فتحها واستقبالها للمبصر تكون

Digitized by Birzeit University Library

مدركة بالفعل ومعنى مدركة بالفعل انها الان تدرك وكذلك كل واحدة من هذه القوي تكون بالقوة وتكون بالفعل وكل واحدة من هذه القوى ان كانت لم تدرك قط بالفعل فهى مادامت بالقوة لا تشوق الى ادراك الشئ المخصوص لانها لم تعرف به بعد مثل من خلق مكفوف البصر وان كانت قد أدركت بالفعل تارة ثم صارت بالقوة فانها مادامت بالقوة تشتاق الي الادراك بالفعل لانها قد عرفت بذلك المدرك وتعلقت به وحنت اليه مثل من كان بصيرا ثم عمي فانه لا يزال يشتاق الى المبصرات وبحسب مايكون الشئ المدرك اتم وأبهى وأحسن يكون الشوق اليه أكثر والتألم لفقده أعظم ولذلك كان تألم من يفقد بصره بعد الرؤية أعظم من تألم من يفقد شمه اذ الاشياء التي يدركها البصر أتم وأحسن من التى يدركها الشم فان كان فى الاشياء شئ لانهاية لكماله ولا غاية لحسنه وجماله وبهائه وهو فوق البهاء والحسن وليس فى الوجود كمال ولا حسن ولا بهاء ولا جمال الا صادر من جهته وفائض من قبله فمن فقد ادراك ذلك الشئ بعد أن تعرف به فلا محالة انه مادام فاقد اله يكون فى آلام لا نهاية لها كما ان من كان مدركا له على الدوام فانه يكون فى لذة لا انفصام لها وغبطة لا غاية وراءها وبهجة وسرور لا نهاية لهما وقد كان تبين له ان الموجود الواجب الوجود متصف بأوصاف الكمال كلها ومنزه عن صفات النقص ويرى منها وتبين له ان الشئ الذي به يتوصل الى ادراكه أمر لا يشبه الاجسام ولا يفسد لفسادها فظهر له بذلك ان من كانت له مثل هذه الذات المعدة لمثل هذا الادراك فانه اذا أطرح البدن بالموت فاما ان يكون قبل ذلك فى مدة تصريفه للبدن لم يتعرف قط بهذا الموجود الواجب الوجود ولا اتصل به ولا سمع عنه فهذا اذا فارق البدن لا يتصل بذلك

الموجود ولا يتألم لفقده * وأما جميع القوى الجسمانية فانها تبطل ببطلان الجسم فلاتشتاق أيضا الى مقتضيات تلك القوى ولاتحن اليها ولاتتألم بفقدها وهذه حالة البهائم غير الناطقة كلها سواء كانت على صورة الانسان أولم تكن * وأما ان يكون قبل ذلك فى مدة تصريفه للبدن قد تعرف بهذا الموجود وعلم ماهو عليه من الكمال والعظمة والسلطان والقدرة الا أنه أعرض عنه واتبع هواه حتى وافته منيته وهو على تلك الحال فيحرم المشاهدة وعنده الشوق اليها فيقى فى عذاب طويل وآلام لانهاية لها فاما أن يتخلص من تلك الآلام بعد جهد طويل ويشاهد ماتشوق اليه قبل ذلك وإما ان يبقى فى آلامه بقاء سرمديا بحسب استعداده لكل واحد من الوجهين فى حياته الجسمانية وأما من تعرف بهذا الموجود الواجب الوجود قبل ان يفارق البدن وأقبل بكليته عليه والتزم الفكرة فى جلاله وحسنه وبهائه ولم يعرض عنه حتى وافته منيته وهو على حال من الاقبال والمشاهدة بالفعل فهو اذا فارق البدن بقى فى لذة لانهاية لها وغبطة وسرور وفرح دائم لاتصال مشاهدته لذلك الموجود الواجب الوجود وسلامة تلك المشاهدة من الكدر والشوائب ويزول عنه ماتقتضيه هذه القوى الجسمانية من الامور الحسية التى هى بالاضافة الى تلك الحال الام وشرور وعوائق فلما تبين له ان كمال ذاته ولذتها انما هو بمشاهدة ذلك الموجود الواجب الوجود على الدوام مشاهدة بالفعل أبدا حتى لايعرض عنه طرفة عين لكي توافيه منيته وهو فى حال المشاهدة بالفعل فتتصل لذته دون ان يتخللها ألم . واليه أشار الجنيد شيخ الصوفية وامامهم عند موته بقوله لاصحابه هذا وقت يؤخذ منه الله أكبر واحرم للصلاة) ثم جعل يتفكر كيف يتأتى له دوام هذه المشاهدة بالفعل حتى لايقع منه اعراض

Digitized by Birzeit University Library

فكان يلازم الفكرة فى ذلك الموجود كل ساعة كما هو الا ان يسنح لبصره محسوس ما من المحسوسات أو يخرق سمعه صوت بعض الحيوان أو يعترضه خيال من الخيالات أو يناله ألم فى أحد أعضائه أو يصيبه الجوع أو العطش أو البرد أو الحر أو يحتاج الى القيام لدفع فضوله فتختل فكرته ويزول عما كان فيه ويتعذر عليه الرجوع الى ما كان عليه من حال المشاهدة الا بعد جهد وكان يخاف ان تفجأه منيته وهو فى حال الاعراض فيمضى الى الشقاء الدائم وألم الحجاب فساءه حاله ذلك واعياه الدواء فجعل يتصفح أنواع الحيوانات كلها وينظر أفعالها وما تسعى فيه لعله ينظر فى بعضها أنها شعرت بهذا الموجود وجعلت تسعى نحوه فيتعلم منها ما يكون سبب نجاته فرآها كلها انما تسعى فى تحصيل غذائها ومقتضى شهواتها من المطعوم والمشروب والمنكوح والاستظلال والاستدفاء ويجد فى ذلك ليلها ونهارها الى حين مماتها وانقضاء مدتها ولم ير شيأ منها ينحرف عن هذا الرأى ولا يسعى لغيره فى وقت من الاوقات فبان له بذلك انها لم تشعر بذلك الموجود ولا اشتاقت اليه ولا تعرفت به بوجه من الوجوه وانها كلها صائرة الى العدم أو الى حال شبيه بالعدم فلما حكم بذلك على الحيوان علم ان الحكم له على النبات أولى اذ ليس للنبات من الادراكات الا بعض ما للحيوان واذا كان الاكمل ادراكا لم يصل الى هذه المعرفة فالانقص ادراكا أحرى أن لا يصل مع انه رأى أيضا ان أفعال النبات كلها لا تتعدى الغذاء والتوليد . ثم انه بعد ذلك نظر الى الكواكب والافلاك فرآها كلها منتظمة الحركات جارية على نسق ورآها شفافة مضيئة بعيدة عن قبول التغير والفساد فحدس حدساً قويا ان لها ذوات سوى أجسامها تعرف ذلك الموجود الواجب الوجود وان تلك الذوات العارفة ليست باجسام ولا

منطبعة فى أجسام مثل ذاته هو العارفة وكيف لايكون لها مثل تلك الذوات البريئة عن الجسمانية ويكون لمثله هو على ماهو به من الضعف وشدة الاحتياج الى الامور المحسوسة وانه من جملة الاجسام الفاسدة ومع مابه من النقص فلم يعقه ذلك عن ان تكون ذاته بريئة عن الاجسام لاتفسد فتبين له بذلك ان الاجسام السماوية أولى بذلك وعلم انها تعرف ذلك الموجود الواجب الوجود وتشاهده على الدوام بالفعل لان العوائق التى قطعت به هو عن دوام المشاهدة من العوارض المحسوسة لايوجد مثلها للاجسام السماوية . ثم انه تفكر لم اختص من بين سائر أنواع الحيوان بهذه الذات التى تشبه بها الاجسام السماوية وقد كان تبين له أولا من أمر العناصر واستحالة بعضها الى بعض ان جميع ماعلى وجه الارض لايبقى على صورته بل الكون والفساد متعاقبان عليه أبدا وان أكثر هذه الاجسام مختلطة مركبة من أشياء متضادة ولذلك تؤل الى الفساد وانها لايوجد منها شئ صرفا وما كان منها قريبا من ان يكون صرفا خالصاً لاشائبة فيه فهو بعيد عن الفساد جدا مثل جسد الذهب والياقوت وان الاجسام السماوية بسيطة صرفة ولذلك هى بعيدة عن الفساد والصور لاتتعاقب عليها . وتبين له أيضاً ان جميع الاجسام التي فى عالم الكون والفساد منها ماتتقوم حقيقته بصورة واحدة زائدة على معنى الجسمية وهذه هي الاسطقصات الاربع ومنها ماتتقوم حقيقته بأكثر من ذلك كالحيوان والنبات فما كان قوام حقيقته بصور أقل كانت أفعاله أقل وبعده من الحياة أكثر فان عدم الصورة جملة لم يكن فيه الى الحياة طريق وصار فى حال شبيهة بالعدم وما كان قوام حقيقته بصور أكثر كانت أفعاله أكثر ودخوله فى حال الحياة أبلغ وان كانت تلك الصورة بحيث لاسبيل الي مفارقتها لمادتها التى

Digitized by Birzeit University Library

اختصت بها كانت الحياة حينئذ فى غاية الظهور والدوام والقوة فالشئ العديم الصورة جملة هو الهيولى والمادة ولاشئ من الحياة فيها وهي شبيهة بالعدم والشئ المتقوم بصورة واحدة هي الاسطقصات الاربع وهى فى انزل مراتب الوجود فى عالم الكون والفساد ومنها تتركب الاشياء ذوات الصور الكثيرة وهذه الاسطقصات ضعيفة الحياة جدا اذ ليست تتحرك الا حركة واحدة وانما كانت ضعيفة الحياة لان لكل واحد منها ضدا ظاهر العناد بخالفه فى مقتضي طبيعته و يطلب ان يغير صورته فوجوده لذلك غير متمكن وحياته ضعيفة والنبات أقوى حياة منه والحيوان أظهر حياة منه وذلك أن ما كان من هذه المركبات تغلب عليه طبيعة اسطقص واحد فلقوته فيه يغلب طبائع الاسطقصات الباقية و يبطل قواها و يصير ذلك المركب فى حكم الاسطقص الغالب فلا يستاهل لاجل ذلك من الحياة الا شيأ يسيراً كما ان ذلك الاسطقص لا يستأهل من الحياة الا يسيراً ضعيفاً وما كان من هذه المركبات لا تغلب عليه طبيعة اسطقص واحد منها فان الاسطقصات تكون فيه متعادلة متكافئة فاذن لا يبطل أحدها قوة الآخر باكثر مما يبطل ذلك الآخر قوته بل يفعل بعضها فى بعض فعلا متساويا فلا يكون فعل أحد الاسطقصات أظهر ولا يستولي عليه أحدها فيكون بعيد الشبه من كل واحد من الاسطقصات فكأنه لا مضادة لصورته فيستاهل للحياة بذلك ومتى زاد هذا الاعتدال وكان أتم وأبعد من الانحراف كان بعده عن ان يوجد له ضداً اكثر وكانت حياته أكمل ولما كان الروح الحيوانى الذى مسكنه القلب شديد الاعتدال لانه ألطف من الارض والماء وأغلظ من النار والهواء صار فى حكم الوسط ولم يضاد شيأ من الاسطقصات مضادة بينة فاستعد بذلك لصورة الحيوانية فرأي ان الواجب

Digitized by Birzeit University Library

على ذلك ان يكون أعدل ما فى هذه الارواح الحيوانية مستعدا لأتم مايكون من الحياة فى عالم الكون والفساد وأن يكون ذلك الروح قريباً من أن يقال انه لاضد لصورته فيشبه لذلك هذه الاجسام السماوية التى لاضد لصورها ويكون روح ذلك الحيوان لانه وسط بالحقيقة بين الاسطقصات التى لاتتحرك الى جهة العلو على الاطلاق ولا الى جهة السفل بل لو أمكن ان يجعل فى وسط المسافة التي بين المركز وأعلى مايتهى اليه النار فى جهة العلو ولم يطرأ عليه فساد لثبت هناك ولم يطلب الصعود ولا النزول ولو تحرك فى المكان لتحرك حول الوسط كما تتحرك الاجسام السماوية ولو تحرك فى الموضع لتحرك على نفسه وكان كري الشكل اذ لايمكن غير ذلك فاذن هو شديد الشبه بالاجسام السماوية • ولما كان قد اعتبر أحوال الحيوان ولم ير فيها مايظن به أنه شعر بالموجود الواجب الوجود وقد كان علم من ذاته أنها قد شعرت به قطع بذلك على أنه هو الحيوان المعتدل الروح الشبيه بالاجسام السماوية كلها وتبين له انه نوع لسائر أنواع الحيوان وانه انما خلق لغاية أخرى وأعد لامر عظيم لم يعد له شيء من أنواع الحيوان وكفي به شرفا ان يكون أخس جزأيه وهو الجسماني أشبه الاشياء بالجواهر السماوية الخارجة عن عالم الكون والفساد المنزهة عن حوادث النقص والاستحالة والتغير وأما أشرف جزأيه فهو الشيء الذى به عرف الموجود الواجب الوجود وهذا الشيء العارف أمر ربانى الهى لايستحيل ولا يلحقه الفساد ولايوصف بشيء مما توصف به الاجسام ولايدرك بشيء من الحواس ولا يتخيل ولا يتوصل الى معرفته بآلة سواه بل وصل اليه به فهو العارف والمعروف والمعرفة وهو العالم والعلم والمعلوم لاتباين فى شيء من ذلك اذ التباين والانفصال من صفات الاجسام ولو احقها ولاجسم هناك ولا

Digitized by Birzeit University Library

صفة جسم ولا لاحق بجسم * فلما تبين له الوجه الذى اختص به من بين سائر أصناف الحيوان بمشابهة الاجسام السماوية رأي ان الواجب عليه ان يتقلبها ويحاكي أفعالها وينشبه بها جهده . وكذلك رأى انه بجزئه الاشرف الذى به عرف الموجود الواجب الوجود فيه شبه ما منه من حيث هو منزه عن صفات الاجسام كما ان الواجب الوجود منزه عنها ورأى أيضاً انه يجب عليه أن يسعي فى تحصيل صفاته لنفسه من أى وجه أمكن وأن يتخلق بأخلاقه ويقتدي بأفعاله ويجد فى تنفيذ ارادته ويسلم الامر له ويرضى بجميع حكمه رضي من قلبه ظاهراً وباطناً بحيث يسر به وان كان مؤلماً لجسمه وضاراً به ومتلفاً لبدنه بالجملة . وكذلك رأى ان فيه شبهاً من سائر أنواع الحيوان بجزئه الخسيس الذى هو من عالم الكون والفساد وهو البدن المظلم الكثيف الذي يطالبه بأنواع المحسوسات من المطعوم والمشروب والمنكوح ورأى ان ذلك البدن لم يخلق له عبثاً ولا قرن به لامر باطل وانه يجب عليه أن يتفقده ويصلح من شأنه وهذا التفقد لا يكون منه الا بفعل يشبه أفعال سائر الحيوان فانجهت عنده الاعمال التى يجب عليه أن يفعلها نحو ثلاثة أغراض اما عمل ينشبه به بالحيوان غير الناطق . واما عمل ينشبه به بالاجسام السماوية واما عمل ينشبه به بالموجود الواجب الوجود فالتشبه الاول يجب عليه من حيث له البدن المظلم ذو الاعضاء المنقسمة والقوي المختلفة والمنازع المتفننة والتشبه الثانى يجب عليه من حيث الروح الحيواني الذى مسكنه القلب وهو مبدأ لسائر البدن ولما فيه من القوى والتشبه الثالث يجب عليه من حيث هو هواي من حيث هو الذات الذي عرف به ذلك الموجود الواجب الوجود وكان أولا قد وقف على ان سعادته وفوزه من الشقاء انما هي فى دوام المشاهدة

Digitized by Birzeit University Library

لهذا الموجود الواجب الوجود حتى يكون بحيث لا يعرض عنه طرفة عين ثم انه نظر فى الوجه الذي يتأتى له به هذا الدوام فاخرج له النظر أنه يجب عليه الاعتمال فى هذه الاقسام الثلاثة من التشبهات أما التشبه الاول فلايحصل له به شيء من هذه المشاهدة بل هو صارف عنها وعائق دونها اذ هو تصرف فى الامور المحسوسة والامور المحسوسة كلها حجب معترضة دون تلك المشاهدة وانما احتيج الى هذا التشبه لاستدامة هذا الروح الحيوانى الذى يحصل به التشبه الثانى بالاجسام السماوية فالضرورة تدعو اليه من هذا الطريق ولوكان لا يخلو من تلك المضرة . وأما التشبه الثانى فيحصل له به حظ عظيم من المشاهدة على الدوام لكنها مشاهدة يخالطها شوب اذ من يشاهد ذلك النحو من المشاهدة على الدوام فهو مع تلك المشاهدة يعقل ذاته ويلتفت اليها حسبما يتبين بعد هذا . وأما التشبه الثالث فتحصل به المشاهدة الصرفة والاستغراق المحض الذي لا التفات فيه بوجه من الوجوه الا الى الموجود الواجب الوجود والذي يشاهد هذه المشاهدة قد غابت عنه ذات نفسه وفنيت وتلاشت وكذلك سائر الذوات كثيرة كانت أو قليلة الا ذات الواحد الحق الواجب الوجود جل وتعالى وعز فلما تبين له ان مطلوبه الاقصى هو هذا التشبه الثالث وانه لا يحصل له الا بعد التمرن والاعتمال مدة طويلة فى التشبه الثاني وان هذه المدة لا تدوم له الا بالتشبه الاول وعلم ان التشبه الاول وان كان عائقاً بذاته معيناً بالعرض لا بالذات لكنه ضرورى ألزم نفسه أن لا يجعل لها حظاً من هذا التشبه الاول الا بقدر الضرورة وهي الكفاية التي لابقاء للروح الحيوانى بأقل منها ووجد ما تدعو اليه الضرورة فى بقاء هذا الروح أمرين أحدهما ما يمده به من داخل ويخلف عليه بدل ما تحلل من الغذاء والآخر

ما يقيه من خارج ويدفع عنه وجوه الاذي من البرد والحر والمطر ولفح الشمس والحيوانات المؤذية ونحو ذلك ورأي انه ان تناول ضرورية من هذه جزافاً كيفما اتفق ربما وقع في السرف وأخذ فوق الكفاية فكان سعيه على نفسه من حيث لا يشعر فرأي ان الحزم له أن يفرض لنفسه فيها حدوداً لا يتعداها ومقادير لا يتجاوزها وبان له ان هذا الفرض يجب أن يكون في جنس ما يتغذى به وأي شيء يكون وفي مقداره وفي المدة التي تكون بين العودتين اليه فنظر أولا في أجناس ما به يتغذى فرآها ثلاثة أضرب اما نبات لم يكمل نضجه ولم ينته الى غاية تمامه وهي أصناف البقول الرطبة التي يمكن الاغتذاء بها واما ثمرات النبات الذي قد تم وتناهى واخرج بزره ليتكون منه آخر من نوعه حفظاً له وهي أصناف الفواكه رطبها ويابسها واما حيوان من الحيوانات التي يغتذى بها اما البرية واما البحرية وكان قد صح عنده ان هذه الأجناس كلها من فعل ذلك الموجود الواجب الوجود الذي تبين له ان سعادته في القرب منه وطلب التشبه به ولا محالة ان الاغتذاء بها مما يقطعها عن كمالها ويحول بينها وبين الغاية المقصودة بها فكان ذلك اعتراضاً على فعل الفاعل وهذا الاعتراض مضاد لما يطلبه من القرب منه والتشبه به فرأي ان الصواب له لو أمكن أن يمتنع عن الغذاء جملة واحدة لكنه لم يمكنه ذلك لانه ان امتنع عنه يؤل ذلك الي فساد جسمه فيكون ذلك اعتراضاً على فاعله أشد من الاعتراض الاول اذ هو أشرف من تلك الاشياء الاخري التي يكون فسادها سبباً لبقائه فاستسهل أيسر الضررين وتسامح في أخف الاعتراضين ورأي أن يأخذ من هذه الاجناس اذا عدمت أيها تيسر له بالقدر الذي يتبين له بعد هذا أما ان كانت كلها موجودة فينبغي له حينئذ أن يتثبت ويتخير منها ما لم

يكن فى أخذه كبير اعتراض على فعل الفاعل وذلك مثل لحوم الفواكه التى قد تناهت فى الطيب وصلح ما فيها من البذر لتوليد المثل على شرط التحفظ بذلك البزر بأن لا يأكله ولا يفسده ولا يلقيه فى موضع لا يصلح للنبات مثل الصفاة والسبخة ونحوها فان تعذر عليه وجود مثل هذه الثمرات ذات اللحم الغاذي كالتفاح والكمثرى والاجاص ونحوها كان له عند ذلك أن يأخذ اما من الثمرات التى لا يغذو منها لا نفس البزر كالجوز والقسطل وأما من البقول التى لم تصل حد كمالها والشرط عليه فى هذين أن يقصد أكثرها وجوداً وأقواها توليداً وأن لا يستأصل أصولها ولا يفنى بزرها فان عدم هذه فله أن يأخذ من الحيوان أو من بيضه والشرط عليه فى الحيوان أن يأخذ من أكثره وجوداً ولا يستأصل منه نوعاً بأسره . هذا ما رآه فى جنس ما يغتذى به وأما المقدار فرأى أن يكون بحسب ما يسد خلة الجوع ولا يزيد عليها . وأما الزمان الذى بين كل عودتين فرأى انه اذا أخذ حاجته من الغذاء أن يقيم عليه ولا يتعرض لسواه حتى يلحقه ضعف يقطع به عن بعض الاعمال التى تجب عليه فى التشبه الثانى وهو الذي يأتى ذكره بعد هذا . وأما ما تدعو اليه الضرورة فى بقاء الروح الحيواني مما يقيه من خارج فكان الخطب فيه عليه يسيراً اذ كان مكتسياً بالجلود وقد كان له مسكن يقيه مما يرد عليه من خارج فاكتفى بذلك ولم يرى الاشتغال به والتزم فى غذائه القوانين التى رسمها لنفسه وهى التى تقدم شرحها . ثم أخذ فى العمل الثانى وهو التشبه بالاجسام السماوية والاقتداء بها والتقبل لصفاتها وتتبع اوصافها فانحصرت عنده فى ثلاثة أضرب . الضرب الاول أوصاف لها بالاضافة الى ما تحتها من عالم الكون والفساد وهى ما تعطيه اياه من التسخين بالذات والتبريد

Digitized by Birzeit University Library

بالعرض والاضاءة والتلطيف والتكثيف الي سائر ماتفعل فيه من الامور التي بها يستعد لفيضان الصور الروحانية عليه من الفاعل الواجب الوجود . والضرب الثاني أوصاف لها في ذاتها مثل كونها شفافة ونيرة وطاهرة منزهة عن الكدر وضروب الرجس ومتحركة بالاستدارة بعضها على مركز نفسها وبعضها على مركز غيرها . والضرب الثالث أوصاف لها بالاضافة الى الموجود الواجب الوجود مثل كونها تشاهده مشاهدة دائمة ولا تعرض عنه وتتشوق اليه وتتصرف بحكمه وتسخر في تتميم ارادته ولا تتحرك الا بمشيئته وفي قبضته فجعل يتشبه بها جهده في كل واحد من هذه الاضرب الثلاثة . أما الضرب الاول فكان تشبهه بها فيه ان ألزم نفسه أن لا يرى ذا حاجة أوعاهة أو مضرة أوذا عائق من الحيوان أوالنبات وهو يقدر على ازالتها عنه الا ويزيلها فمتى وقع بصره على نبات قد حجبه عن الشمس حاجب أو تعلق به نبات آخر يؤذيه أوعطش عطشا يكاد يفسده أزال عنه ذلك الحاجب ان كان مما يزال وفصل بينه وبين ذلك المؤذي بفاصل لا يضر المؤذي وتعهده بالسقي ما أمكنه ومتى وقع بصره على حيوان قد أرهقه سبع أونشب به ناشب أو تعلق به شوك أوسقط في عينيه أوأذنيه شئ يؤذيه أومسه ظمأ أوجوع تكفل بازالة ذلك كله عنه جهده وأطعمه وسقاه . ومتى وقع بصره على ماء يسيل الى سقي نبات أوحيوان وقد عاقه عن ممره عائق من حجر سقط فيه أوجرف انهار عليه أزال ذلك كله عنه ومازال يمعن في هذا النوع من ضروب التشبه حتى بلغ فيه الغاية . وأما الضرب الثاني فكان تشبهه بها فيه ان ألزم نفسه دوام الطهارة وازالة الدنس والرجس عن جسمه والاغتسال بالماء في أكثر الاوقات وتنظيف ما كان من أظفاره واسنانه ومغابن بدنه وتطييبها بما أمكنه

من طيب النبات وصنوف الدواهن العطرة وتعهد لباسه بالتنظيف والتطييب حتى كان كله يتلألأ حسنا وجمالا ونظافة وطيبا . والتزم مع ذلك ضروب الحركة على الاستدارة فتارة كان يطوف بالجزيرة ويدور على ساحلها ويسيح باكنافها وتارة كان يطوف ببيته أو ببعض الكدى أدوارا معدودة اما مشيا واما هرولة وتارة يدور على نفسه حتى يغشى عليه . وأما الضرب الثالث فكان تشبهه بها فيه أن كان يلازم الفكرة فى ذلك الموجود الواجب الوجود ثم يقطع علائق المحسوسات ويغمض عينيه ويسد أذنيه ويضرب جهده عن تتبع الخيال ويروم بمبلغ طاقته أن لا يفكر فى شىء سواه ولا يشرك به أحدا ويستعين على ذلك بالاستدارة على نفسه والاستحثاث فيها فكان اذا اشتد فى الاستدارة غابت عنه جميع المحسوسات وضعف الخيال وسائر القوى التى تحتاج الى الآلات الجسمانية وقوى فعل ذاته التى هي بريئة من الجسم فكانت فى بعض الاوقات فكرته قد تخلص عن الشوب ويشاهدبها الموجود الواجب الوجود ثم تكر عليه القوى الجسمانية فتفسد عليه حاله وترده الى أسفل السافلين فيعود من قبل ذي فان لحقه ضعف يقطع به عن غرضه تناول بعض الاغذية على الشرائط المذكورة ثم انتقل الى شأنه من التشبه بالاجسام السماوية بالاضرب الثلاثة المذكورة ودأب على ذلك مدة وهو يجاهد قواه الجسمانية وتجاهده وينازعها وتنازعه فى الاوقات التى يكون له عليها الظهور وتتخلص فكرته عن الشوب يلوح له شىء من أحوال أهل التشبه الثالث يدعوه لان يطلب التشبه الثالث ويسعى فى تحصيله فينظر فى صفات الموجود الواجب الوجود وقد كان تبين له أثناء نظره العلمى قبل الشروع فى العمل انها على ضربين اما صفة ثبوت كالعلم والقدرة والحكمة . واما صفة سلب

Digitized by Birzeit University Library

كتنزهه عن الجسميات ولو احقها وما يتعلق بها ولو على بعد وأن صفات الثبوت يشترط فيها هذا التنزيه حتي لايكون فيها شيء من صفات الاجسام التي من جملتها الكثرة فلاتتكسر ذاته بهذه الصفات الثبوتية بل ترجع كلها الى معنى واحد هي حقيقة ذاته فجعل يطلب كيف يتشبه به فى كل واحد من هذين الضربين . أما صفات الايجاب فلما علم انها كلها راجعة الي حقيقة ذاته وانه لا كثرة فيها بوجه من الوجوه اذ الكثرة من صفات الاجسام وعلم ان علمه بذاته ليس معنى زائدا على ذاته بل ذاته هى علمه بذاته وعلمه بذاته هو ذاته تبين له انه ان أمكنه هو ان يعلم ذاته فليس ذلك العلم الذى علم به ذاته معنى زائدا علي ذاته بل هو هو فرأى ان التشبه به فى صفة الايجاب هو ان يعلمه فقط دون ان يشرك به شيأ من صفات الاجسام فاخذ نفسه بذلك وأما صفات السلب فانها كلها راجعة الى التنزه عن الجسمية فجعل يطرح أوصاف الجسمية عن ذاته وكان قد أطرح منها كثيرا فى رياضته المتقدمة التى كان ينحو بها التشبه بالاجسام السماوية الا أنه ابقي منها بقايا كحركة الاستدارة والحركة من أخص صفات الاجسام وكالاعتناء بأمر الحيوان والنبات والرحمة لهما والاهتمام بازالة عوائقهما فان هذه أيضاً من صفات الاجسام اذ لايراها اولا الا بقوة هى جسمانية ثم يكدح فى أمرها بقوة جسمانية أيضاً فاخذ فى طرح ذلك كله عن نفسه اذ هى بجملتها مما لايليق بهذه الحالة التى يطلبها الآن ومازال يقتصر على السكون فى مقعر مغارته مطرقا غاضا بصره معرضا عن جميع المحسوسات والقوى الجسمانية مجتمع الهم والفكرة فى الموجود الواجب الوجود وحده دون شركة فمتى سنح لخياله سانح سواه طرده عن خياله جهده ودافعه وراض نفسه على ذلك وداب فيه مدة طويلة بحيث تمر

Digitized by Birzeit University Library

عليه عدة أيام لا يتغدي فيها ولا يتحرك . وفي خلال شدة مجاهدته هذه ربما كانت تغيب عن ذكره وفكره جميع الذوات الا ذاته فانها كانت لا تغيب عنه في وقت استغراقه بمشاهدة الموجود الاول الحق الواجب الوجود فكان يسوءه ذلك ويعلم انه شوب في المشاهدة المحضه وشركة في الملاحظة ومازال يطلب الفناء عن نفسه والاخلاص في مشاهدة الحق حتي تأتى له ذلك وغابت عن ذكره وفكره السموات والارض وما بينهما وجميع الصور الروحانية والقوى الجسمانية وجميع القوي المفارقة للمواد وهي الذوات العارفة بالموجود وغابت ذاته في جملة الذوات وتلاشى الكل واضمحل وصار هباء منثوراولم يبق الا الواحد الحق الموجود الثابت الوجود وهو يقول بقوله الذى ليس معنى زائدا على ذاته لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ففهم كلامه وسمع نداءه ولم يمنعه عن فهمه كونه لا يعرف الكلام ولا يتكلم واستغرق في حالته هذه وشاهدمالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر فلا تعلق قلبك بوصف أصر لم يخطر علي قلب بشر فان كثيرا من الامور التي قد تخطر على قلوب البشر يتعذر وصفها فكيف بأمر لا سبيل الى خطوره علي القلب ولا هو من عالمه ولا من طوره ولست أعنى بالقلب جسم القلب ولا الروح التى في تجويفه بل أعني به صورة تلك الروح الفائضة بقواها على بدن الانسان فان كل واحد من هذه الثلاثة يقال له قلب ولكن لا سبيل لخطور ذلك الامر على واحد من هذه الثلاثة ولا يتأتي التعبير الا عما خطر عليها ومن رام التعبير عن تلك الحال فقد رام مستحيلا وهو بمنزلة من يريد أن يذوق الالوان المصبوغة من حيث هي ألوان ويطلب أن يكون السواد منها حلواً أو حامضاً . لكنا مع ذلك لا نخليك عن اشارات نومئ بها الى ماشاهده من عجائب ذلك المقام على سبيل ضرب المثال

Digitized by Birzeit University Library

لا على سبيل قرع باب الحقيقة اذ لا سبيل الى التحقق بما فى ذلك المقام الا بالوصول اليه . فاصغ الآن بسمع قلبك وأحدق ببصر عقلك الى ما أشير اليه لعلك تجد منه هدياً يلقيك على جادة الطريق وشرطى عليك أن لا تطلب منى فى هذا الوقت مزيد بيان بالمشافهة على ما أودعه هذه الاوراق فان المجال ضيق والتحكم بالالفاظ على أمر ليس من شأنه أن يلفظ به خطر . فاقول انه لما فنى عن ذاته وعن جميع الذوات ولم ير فى الوجود الا الواحد الحى القيوم وشاهد ما شاهد ثم عاد الى ملاحظة الاغيار عند ما أفاق من حاله تلك التى هي شبيهة بالسكر خطر بباله انه لا ذات له يغايرها ذات الحق تعالى وان حقيقة ذاته هي ذات الحق وان الشىء الذى كان يظن أولا انه ذاته المغايرة لذات الحق ليس شيأ فى الحقيقة بل ليس ثم شىء الا ذات الحق وان ذلك بمنزلة نور الشمس الذى يقع على الاجسام الكثيفة فتراه يظهر فيها فانه وان نسب الى الجسم الذي ظهر فيه فليس هو فى الحقيقة شيأ سوى نور الشمس وان زال ذلك الجسم زال نوره وبقى نور الشمس بحاله لم ينقص عند حضور ذلك الجسم ولم يزد عند مغيبه ومتى حدث جسم يصلح لقبول ذلك النور قبله فاذا عدم الجسم عدم ذلك القبول ولم يكن له معنى وتقوى عنده هذا الظن بما كان بان له من ان ذات الحق عز وجل لا تتكثر بوجه من الوجوه وان علمه بذاته هو ذاته بعينها فلزم عنده من هذا ان من حصل عنده العلم بذاته فقد حصل عنده ذاته وقد كان حصل عنده العلم فحصل عنده الذات وهذه الذات لا تحصل الا عند ذاتها ونفس حصولها هو الذات فاذن هو الذات بعينها وكذلك جميع الذوات المفارقة للمادة العارية بتلك الذات

الحقة التي كان يراها أولا كثيرة وصارت عنده بهذا الظن شيئا واحدا وكادت هذه الشبهة ترسخ في نفسه لولا ان تداركه الله برحمته وتلافاه بهدايته فعلم ان هذه الشبهة انما ثارت عنده من بقايا ظلمة الاجسام وكدورة المحسوسات فان الكثير والقليل والواحد والوحدة والجمع والاجتماع والافتراق هي كلها من صفات الاجسام وتلك الذوات المفارقة العارفة بذات الحق عز وجل لبراءتها عن المادة لايجب ان يقال انها كثيرة ولا واحد لان الكثرة انما هي لمغايرة الذوات بعضها لبعض والوحدة أيضاً لاتكون الا بالاتصال ولا يفهم شيء من ذلك الا في المعاني المركبة الملبسة بالمادة غير ان العبارة في هذا الموضع قد تضيق جدا لانك ان عبرت عن تلك الذوات المفارقة بصيغة الجمع حسب لفظنا هذا أوهم ذلك معنى الكثرة فيها وهي بريئة عن الكثرة وان أنت عبرت بصيغة الافراد أوهم ذلك معنى الاتحاد وهو مستحيل عليها وكأني بمن يقف على هذا الموضع من الخفافيش الذين نظام الشمس في أعينهم يتحرك في سلسلة جنونه ويقول لقد أفرطت في تدقيقك حتى انك قد خلعت عن غريزة العقلاء وأطرحت حكم المعقول فان من أحكام العقل ان الشيء اما واحد واما كثير فليتئد في غلوائه وليكف من غرب لسانه وليتهم نفسه وليعتبر بالعالم المحسوس الخسيس الذي هو بين طباقه بنحو ما اعتبر به حي بن يقظان حيث كان ينظر فيه بنظر فيراه كثيرا كثرة لاتنحصر ولا تدخل تحت حد ثم ينظر بنظر آخر فيراه واحدا وبقي في ذلك مترددا ولم يمكنه وان يقطع عليه بأحد الوصفين دون الآخر وهذا العالم المحسوس منشأ الجمع والافراد وفيه تفهم حقيقته وفيه الانفصال والاتصال والتحيز والمغايرة والاتفاق والاختلاف فما ظنه بالعالم الالهي الذي لايقال فيه كل ولا بعض ولا ينطق

في أمره بلفظ من الالفاظ المسموعة الا وتوهم فيه شئ علي خلاف الحقيقة فلا يعرفه الا من شاهده ولا تثبت حقيقته الا عند من حصل فيه وأما قوله حتى انخلعت عن غريزة العقلاء وأطرحت حكم المعقول فنحن نسلم له ذلك ونتركه مع عقله وعقلائه فان العقل الذي يعنيه هو وأمثاله انما هو القوة الناطقة التي تتصفح أشخاص الموجودات المحسوسات وتقتنص منها المعنى الكلي والعقلاء الذين يعنيهم هم الذين ينظرون بهذا النظر والنمط الذي كلامنا فيه فوق هذا كله فليسد عنه سمعه من لا يعرف سوى المحسوسات وكلياتها وليرجع الى فريقه الذين يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون) * فان كنت ممن يقنع بهذا النوع من التلويح والاشارة الى ما في العالم الالهي ولا تحمل ألفاظنا من المعاني على ما جرت العادة بها في تحميلها اياه فنحن نزيدك شيأ مما شاهده حي بن يقظان في مقام أولى الصدق الذي تقدم ذكره * فنقول انه بعد الاستغراق المحض والفناء التام وحقيقة الوصول شاهد للفلك الأعلى الذي لا جسم له ورأى ذاتا بريئة عن المادة ليست هي ذات الواحد الحق ولا هي نفس الفلك ولا هي غيرها وكأنها صورة الشمس التي تظهر في مرآة من المرائي الصقيلة فانها ليست هي الشمس ولا المرآة ولا هي غيرها ورأى لذات ذلك الفلك المفارقة من الكمال والبهاء والحسن ما يعظم عن ان يوصف بلسان ويدق عن ان يكسى بحرف أو صوت ورآه في غاية من اللذة والسرور والغبطة والفرح بمشاهدة ذات الحق جل جلا * وشاهد أيضاً للفلك الذي يليه وهو فلك الكواكب الثابتة ذاتا بريئة عن المادة أيضاً ليست هي ذات الواحد الحق ولا ذات الفلك الأعلى المفا ولا نفسه ولا هي غيرها وكأنها صورة الشمس التي تظهر في مرآة قد انعكد

اليها الصورة من مرآة أخرى مقابلة للشمس ورأى لهذه الذات أيضاً من البهاء والحسن واللذة مثل ما رأى لتلك التي للفلك الأعلى . وشاهد أيضاً للفلك الذي يلي هذا وهو فلك زحل ذاتا مفارقة للمادة ليست هي شيأ من الذوات التي شاهدها قبله ولا هي غيرها وكأنها صورة الشمس التي تظهر في مرآة قد انعكست اليها الصورة من مرآة مقابلة للشمس لمرآة ورأى لهذه الذات أيضاً مثل ما رأى لما قبلها من البهاء واللذة ومازال يشاهد لكل فلك ذاتا مفارقة بريئة عن المادة ليست هي شيأ من الذوات التي قبلها ولا هي غيرها وكأنها صورة الشمس التي تنعكس من مرآة على مرآة على رتب مرتبة بحسب ترتيب الافلاك وشاهد لكل ذات من هذه الذوات من الحسن والبهاء واللذة والفرح مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر الى أن انتهى الى عالم الكون والفساد وهو جميعه حشو فلك القمر فرأى له ذاتا بريئة عن المادة ليست شيأ من الذوات التي شاهدها قبلها ولا هي سواها ولهذه الذات سبعون ألف وجه في كل وجه سبعون ألف فم في كل فم سبعون ألف لسان يسبح بها ذات الواحد الحق ويقدسها ويمجدها لا يفتر ورأى لهذه الذات التي توهم فيها الكثرة وليست كثيرة من الكمال واللذة مثل الذي رآه لما قبلها وكأن هذه الذات صورة الشمس التي تظهر في ماء متزجرج قد انعكست اليها الصورة من آخر المرايا التي انتهى اليها الانعكاس على الترتيب المتقدم من المرآة الاولى التي قابلت الشمس بعينها ثم شاهد لنفسه ذاتا مفارقة لو جاز أن تتبعض ذات السبعين ألف وجه لقلنا انها بعضها ولولا ان هذه الذات حدثت بعد ان لم تكن لقلنا انها هي ولولا اختصاصها ببدنه عند حدوثه لقلنا انها لم تحدث . وشاهد في هذه الرتبة ذات مثل ذاته لاجسام كانت ثم

اضمحلت ولاجسام لم تزل معه فى الوجود وهى من الكثرة فى حد بحيث لاتتناهى ان جاز أن يقال لها كثيرة أوهى كلها متحدة ان جاز ان يقال لها واحدة ورأى لذاته ولتلك الذوات التى فى رتبته من الحسن والبهاء واللذة غير المتناهية مالاعين رأت ولا أذن سمعت ولاخطر عل قلب بشر ولا يصفه الواصفون ولا يعقله الا الواصلون العارفون • وشاهد ذوات كثيرة مفارقة للمادة كأنها مرايا صدئة قدران عليها الخبث وهي مع ذلك مستديرة المرايا الصقيلة التى ارتسمت فيها صورة الشمس ومولية عنها بوجوهها ورأي لهذه الذوات من القبح والنقص مالم يقم قط بباله ورآها فى آلام لاتنقضى وحسرات لا تمحي قد أحاط بها سرادق العذاب وأحرقتها نار الحجاب ونشرت بمناشير بين الانزعاج والانجذاب • وشاهد ههنا ذوات سوى هذه المعذبة تلوح ثم تضمحل وتنعقد ثم تنحل فتثبت فيها وأنعم النظر اليها فرأى هولا عظيما وخطبا جسيما وخلقا حثيثا وأحكاما بليغة وتسوية ونفخا وانشاء ونسخا فما هو الا ان تثبت قليلا فعادت اليه حواسه وتنبه من حاله تلك التى كانت شبيهة بالغشى وزلت قدمه عن ذلك المقام ولاح له العالم المحسوس وغاب عنه العالم الالهي اذ لم يمكن اجتماعهما في حال واحد اذ الدنيا والآخرة كضرتين ان أرضيت احداهما أسخطت الأخرى • فان قلت يظهر مما حكيته من هذه المشاهدة ان الذوات المفارقة ان كانت لجسم دائم الوجود لايفسد كالافلاك كانت هى دائمة الوجود وان كانت لجسم يؤول الى الفساد كالحيوان الناطق فسدت هي واضمحلت وتلاشت حسبما مثلت به فى مرايا الانعكاس فان الصورة لاتبات لها الا بثبات المرآة فاذا فسدت المرآة صح فساد الصورة واضمحلت هى • أقول لك ماأسرع ما نسيت العهد وحلت

عن الربط ألم تقدم اليك ان مجال العبارة هنا ضيق وان الالفاظ على كل حال توهم غير الحقيقة وذلك الذى توهمته انما أوقعك فيه ان جعلت المثال والممثل به على حكم واحد من جميع الوجوه ولا ينبغى ان يفعل ذلك فى أصناف المخاطبات المعتادة فكيف ههنا والشمس ونورها وصورتها وتشكلها والمرايا والصور الحاصلة فيها كلها أمور غير مفارقة للاجسام ولا قوام لها الا بها وفيها فلذلك افتقرت فى وجودها اليها و بطلت ببطلانها . وأما الذوات الالهية والارواح الربانية فانها كلها برئية عن الاجسام ولو احقها ومنزهة غاية التنزيه عنها ولا ارتباط ولا تعلق لها بها وسواء بالاضافة اليها بطلان الاجسام أوثبوتها ووجودها أوعدمها وانما ارتباطها وتعلقها بذات الواحد الحق الموجود الواجب الوجود الذي هو أولها ومبدؤها وسببها وموجدها وهو يعطيها الدوام ويمدها بالبقاء والاسرمد ولا حاجة بها الى الاجسام بل الاجسام محتاجة اليها ولو جاز عدمها لعدمت الاجسام فانها هى مباديها كما انه لو جاز ان تعدم ذات الواحد الحق تعالى وتقدس عن ذلك لااله الا هو لعدمت هذه الذوات كلها ولعدمت الاجسام ولعدم العالم الحسى بأسره ولم يبق موجود اذ الكل مرتبط بعضه ببعض والعالم المحسوس وان كان تابعا للعالم الالهى شبيه الظل له والعالم الالهى مستغن عنه وبريء منه فانه مع ذلك قد يستحيل فرض عدمه اذ هو تابع لعالم الالهى وانما فساده ان يبدل لا أن يعدم بالجملة وبذلك نطق الكتاب العزيز حيثما وقع هذا المعنى فى تصيير الجبال كالعهن والناس كالفراش وتكوير الشمس والقمر وتفجير البحار يوم تبدل الارض غير الارض والسموات فهذا القدر الذى أمكننى الآن أن أشير اليك به فيما شاهده حى بن يقظان فى ذلك المقام الكريم فلا تلتمس الزيادة عليه من

Digitized by Birzeit University Library

جهة الالفاظ فان ذلك كالمتعذر .

وأما تمام خبره فسألوه عليك ان شاء الله تعالى وهو انه لما عاد الى العالم المحسوس وذلك بعد جولانه حيث جال سئم تكاليف الحياة واشتد شوقه الى الحياة القصوى فجعل يطلب العود الى ذلك المقام بالنحو الذي طلبه أولا حتى وصل اليه بأيسر من السعي الذي وصل به أولا ودام فيه ثانيا مدة أطول من الاولى . ثم عاد الى عالم الحس . ثم تكلف الوصول الى مقامه بعد ذلك فكان أيسر عليه من الاولى والثانية وكان دوامه فيه أطول وما زال الوصول الى ذلك المقام الكريم يزيد عليه سهولة والدوام فيه يزيد طولا مدة بعد مدة حتى صار بحيث يصل اليه التي شاء ولا ينفصل عنه الا متى شاء فكان يلازم مقامه ذلك ولا ينثني عنه الا لضرورة بدنه التي كان قد قللها حتى كان لا يوجد أقل منها وهو في ذلك كله يتمنى ان يريحه الله عز وجل من كل بدنه الذى يدعوه الى مفارقة مقامه ذلك فيتخلص الى لذته تخلصا دائما ويبرأ مما يجده من الالم عند الاعراض عن مقامه ذلك الى ضرورة البدن وبقي على حالته تلك حتى أناف على سبعة أسابيع من منشئه وذلك خمسون عاما وحينئذ اتفقت له صحبة أسال وكان من قصته معه ما يأتي ذكره بعد هذا ان شاء الله تعالى .

ذكروا ان جزيرة قريبة من الجزيرة التي ولد بها حي بن يقظان على أحد القولين المختلفين في صفة مبدئه انتقلت اليها ملة من الملل الصحيحة المأخوذة عن بعض الانبياء المتقدمين صلوات الله عليهم . وكانت ملة محاكية لجميع الموجودات الحقيقية بالامثال المضروبة التي تعطي خيالات تلك الاشياء وتثبت رسومها في النفوس حسبما جرت به العادة في مخاطبة الجمهور فمازالت

تلك الملة تنتشر بتلك الجزيرة وتتقوى وتظهر حتى قام بها ملكها وحمل الناس على التزامها . وكان قد نشأ بتلك الجزيرة فتيان من أهل الفضل والرغبة فى الخير يسمى أحدهما أسالا والآخر سلامان فتلقيا تلك الملة وقبلاها أحسن قبول وأخذا على أنفسهما بالتزام جميع شرائعها والمواظبة على أعمالها واصطحبا على ذلك وكانا يتفقهان فى بعض الاوقات فيما ورد من ألفاظ تلك الشريعة فى صفة الله عز وجل وملائكته وصفات المعاد والثواب والعقاب فاما أسال فكان أشد غوصا على الباطن وأكثر عثوراً على المعانى الروحانية وأطمع فى التأويل . وأما سلامان صاحبه فكان أكثر احتفاظا بالظاهر وأشد بعدا عن التأويل وأوقف عن التصرف والتأمل وكلاهما مجد فى الاعمال الظاهرة ومحاسبة النفس ومجاهدة الهوى وكان فى تلك الشريعة أقوال تحمل على العزلة والانفراد وتدل على ان الفوز والنجاة فيهما وأقوال آخر تحمل على المعاشرة وملازمة الجماعة . فتعلق أسال بطلب العزلة ورجح القول بها لما كان فى طباعه من دوام الفكرة وملازمة العبرة والغوص على المعانى وأكثر ما كان يتأتى له أمله من ذلك بالانفراد . وتعلق سلامان بملازمة الجماعة ورجح القول بها لما كان في طباعه من الجبن عن الفكرة والتصرف فكانت ملازمته الجمعة عنده مما يدرء الوساوس ويزيل الظنون المعترضة ويعيذ من همزات الشياطين وكان اختلافهما فى هذا الرأى سبب افتراقهما . وكان أسال قد سمع عن الجزيرة التى ذكر ان حى بن يقظان تكون بها وعرف مابها من الخصب والمرافق ولهواء المعتدل وان الانفراد بها يتأتى للمتمسه فأجمع على أن يرتحل اليها ويعتزل الناس بها بقية عمره فجمع ما كان له من المال واكترى ببعضه مركباً تحمله الى تلك الجزيرة

وغرق باقيه على المساكين وودع صاحبه سلامان وركب متن البحر فحمله الملاحون الى تلك الجزيرة ووضعوه بساحلها وانفصلوا عنها . فبقى أسال بتلك الجزيرة يعبد الله عز وجل و يعظمه و يقدسه و يفكر فى أسمائه الحسنى وصفاته العليا فلا ينقطع خاطره ولا تتكدر فكرته واذا احتاج الى الغذاء تناول من ثمرات تلك الجزيرة وصيدها ما يسد به جوعته وأقام على تلك الحال مدة هو فى أتم غبطة وأعظم أنس بمناجاة ربه . وكان كل يوم يشاهد من ألطافه ومزايا تحفه وتيسيره عليه فى مطلبه وغذائه ما يثبت يقينه و يقر عينه وكان فى تلك المدة حي بن يقظان شديد الاستغراق فى مقاماته الكريمة فكان لا يبرح عن مفارته الا مرة فى الاسبوع لتناول ما سنح من الغذاء فلذلك لم يعثر عليه أسال بأول وهلة بل كان يتطوف بأكناف تلك الجزيرة و يسيح فى ارجائها فلا يري انسياً ولا يشاهد أثراً فيزيد بذلك أنسه وتنبسط نفسه لما كان قد عزم عليه من التناهي فى طلب العزلة والانفراد الى أن اتفق فى بعض تلك الاوقات أن خرج حي بن يقظان لالتماس غذائه وأسال قد ألمت بتلك الجهة فوقع بصر كل واحد منهما على الآخر . فأما أسال فلم يشك انه من العباد المنقطعين وصل الى تلك الجزيرة لطلب العزلة عن الناس كما وصل هو اليها فخشي ان هو تعرض له وتعرف به أن يكون ذلك سبباً لفساد حاله وعائقاً بينه و بين أمله . وأما حي بن يقظان فلم يدر ما هو لانه لم يره على صورة شيء من الحيوانات التي كان قد عاينها قبل ذلك وكان عليه مدرعة سوداء من شعر وصوف فظن انها لباس طبيعي فوقف يتعجب منه مليا وولى أسال هارباً منه خيفة أن يشغله عن حاله فاقتفي حي بن يقظان أثره لما كان فى طباعه من البحث عن حقائق الاشياء فلما رآه يشتد فى الهرب خنس عنه

وتوارى له حتى ظن أسال انه قد انصرف عنه وتباعد من تلك الجهة فشرع أسال فى الصلاة والقراءة والدعاء والبكاء والتضرع والتواجد حتى شغله ذلك عن كل شيء فجعل حى بن يقظان يتقرب منه قليلا قليلا وأسال لا يشعر به حتى دنا منه بحيث يسمع قراءته وتسبيحه وبكاءه ويشاهد خضوعه فسمع صوتاً حسناً وحروفاً منظمة لم يعهد مثلها من شيء من أصناف الحيوان ونظر الى أشكاله وتخطيطه فرآه على صورته وتبين له ان المدرعة التى عليه ليست جلداً طبيعياً وانما هي لباس متخذ مثل لباسه هو ولما رأى حسن خشوعه وتضرعه وبكائه لم يشك فى انه من الذوات العارفة بالحق فتشوق اليه وأراد أن يري ما عنده وما الذي أوجب بكاءه وتضرعه فزاد فى الدنو منه حتى أحس به أسال فاشتد فى العدو واشتد حي بن يقظان فى أثره حتى التحق به لما كان اعطاه الله من القوة والبسطة فى العلم والجسم فالتزمه وقبض عليه ولم يمكنه من البراح فلما نظر اليه أسال وهو مكتس بجلود الحيوانات ذوات الاوبار وشعره قد طال حتى جلل كثيراً منه ورأي ما عنده من سرعة الحضر وقوة البطش فرق منه فرقاً شديداً وجعل يستعطفه ويرغب اليه بكلام لا يفهمه حي بن يقظان ولا يدري ما هو غير انه يميز فيه شمائل الجزع فكان يؤنسه بأصوات كان قد تعلمها من بعض الحيوانات ويجريده على رأسه ويمسح أعطافه ويتملق اليه ويظهر البشر والفرح به حتى سكن جاش أسال وعلم انه لا يريده بسوء وكان أسال قديماً لمحبته فى علم التأويل قد تعلما كثير الالسن ومهر فيها فجعل يكلم حي بن يقظان ويسائله عن شأنه بكل لسان يعلمه ويعالج أفهامه فلا يستطيع وحي بن يقظان فى ذلك كله يتعجب مما يسمع ولا يدري ما هو غير أنه يظهر له البشر والقبول فاستغرب كل واحد منهما

أمر صاحبه وكان عند أسال بقية من زاد كان قد استصحبه من الجزيرة المعمورة فقربه الى حي بن يقظان فلم يدر ماهو لانه لم يكن شاهده قبل ذلك فأكل منه أسال وأشار اليه ليأكل فتفكر حي بن يقظان فيما كان عقد على نفسه من الشروط في تناول الغذاء ولم يدر أصل ذلك الشيء الذي قدم ما هو وهل يجوز له تناوله أم لا فامتنع عن الاكل ولم يزل أسال يرغب اليه ويستعطفه وقد كان أولع به حي بن يقظان فخشي ان دام على امتناعه أن يوحشه فاقدم على ذلك الزاد وأكل منه فلما ذاقه واستطابه بدا له سوء ماصنع من نقض عهوده في شرط الغذاء وندم على فعله وأراد الانفصال عن أسال والاقبال على شأنه من طلب الرجوع الى مقامه الكريم فلم تتأت له المشاهدة بسرعة فرأي أن يقيم مع أسال في عالم الحس حتى يقف على حقيقة شأنه ولا يبقى في نفسه هو نزوع اليه وينصرف بعد ذلك الى مقامه دون أن يشغله شاغل فالتزم صحبة أسال ولما رأي أسال أيضاً انه لا يتكلم أمن من غوائله على دينه ورجا أن يعلمه الكلام والعلم والدين فيكون له بذلك أعظم أجر وزلفي عند الله فشرع أسال في تعليمه الكلام أولا بأن كان يشير له الى أعيان الموجودات وينطق باسمائها ويكرر ذلك عليه ويحمله على النطق فينطق بها مقتراً بالاشارة حتى علمه الاسماء كلها ودرجه قليلا قليلا حتي تكلم في أقرب مدة فجعل أسال يسأله عن شأنه ومن أين صار الي تلك الجزيرة فاعلمه حي بن يقظان انه لا يدري لنفسه ابتداء ولا أباً ولا أماً أكثر من الظبية التي ربته ووصف له شأنه كله وكيف ترقي بالمعرفة حتى انتهى الي درجة الوصول فلما سمع أسال منه وصف تلك الحقائق والذوات المفارقة لعالم الحس العارفة بذات الحق عز وجل ووصف له ذات الحق تعالى وجل بأوصافه

الحسي ووصف له ما أمكنه وصفه مما شاهده عند الوصول من لذات الواصلين وآلام المحجوبين لم يشك أسال فى أن جميع الاشياء التي وردت فى شريعته من أمر الله عز وجل وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وجنته وناره هى أمثلة هذه التى شاهدها حى بن يقظان فانفتح بصر قلبه وانقدحت نار خاطره وتطابق عنده المعقول والمنقول وقربت عليه طرق التأويل ولم يبق عليه مشكل فى الشرع الا تبين له ولا مغلق الا انفتح ولا غامض الا اتضح وصار من أولي الالباب وعند ذلك نظر الى حى بن يقظان بعين التعظيم والتوقير وتحقق عنده أنه من أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون فالتزم خدمته والاقتداء به والاخذ باشارته فيما تعارض عنده من الاعمال الشرعية التى كان قد تعلمها فى ملته وجعل حى بن يقظان يستفصحه عن أمره وشأنه فجعل أسال يصف له شأن جزيرته وما فيها من العالم وكيف كانت سيرهم قبل وصول الملة اليهم وكيف هى الآن بعد وصولها اليهم ووصف له جميع ما ورد فى الشريعة من وصف العالم الالهى والجنة والنار والبعث والنشور والحشر والحساب والميزان والصراط ففهم حى بن يقظان ذلك كله ولم ير فيه شيئاً على خلاف ما شاهده فى مقامه الكريم فعلم ان الذى وصف ذلك وجاء به محق فى وصفه صادق فى قوله رسول من عند ربه فآمن به وصدقه وشهد برسالته ثم جعل يسأله عما جاء به من الفرائض ووظفه من العبادات فوصف له الصلاة والزكاة والصيام والحج وما أشبهها من الاعمال الظاهرة فتلقى ذلك والتزمه وآخذ نفسه بأدائه امتثالا للامر الذى صح عنده صدق قائله الا انه بقى فى نفسه أمران كان يتعجب منهما ولا يدرى وجه الحكمة فيهما . أحدهما لم ضرب هذا الرسول الامثال للناس فى أكثر ما وصفه من

أمر العالم الالهى واضرب عن المكاشفة حتي وقع الناس فى أمر عظيم من التجسيم واعتقاد أشياء من ذات الحق هو منزه عنها وبرىء منها وكذلك فى أمر الثواب والعقاب . والامر الآخر انه لم اقتصر على هذه الفرائض ووظائف العبادات وأباح الاقتناء للاموال والتوسع في المآكل حتى تفرغ الناس للباطل بالباطل والاعراض عن الحق . وكان رأيه هو أن لا يتناول أحد شيئاً الا ما يقيم به الرمق وأما الاموال فلم تكن عنده بمعنى وكان يرى ما فى الشرع من الاحكام فى أمر الاموال كالزكاة وتشعبها والبيوع والربا والحدود والعقوبات فكان يستغرب ذلك كله ويراه تطويلا ويقول ان الناس لو فهموا الامر على حقيقته لاعرضوا عن هذه البواطل وأقبلوا على الحق واستغنوا عن هذا كله ولم يكن لاحد اختصاص بمال يسأل عن زكاته أو تقطع الايدي على سرقته أو تذهب النفوس على أخذه مجاهرة . وكان الذي أوقعه فى ذلك كله ان الناس كلهم ذو فطر فائقة وأذهان ثاقبة ونفوس حازمة ولم يكن يدري ماهم عليه من البلادة والنقص وسوء الرأي وضعف العزم وأنهم كالانعام بل هم أضل سبيلا . فلما اشتد اشفاقه علي الناس وطمع أن تكون نجاتهم علي يديه حدثت له نية فى الوصول اليهم وايضاح الحق لديهم وتبيينه فتفاوض فى ذلك صاحبه أسأل وسأله هل تمكنه حيلة فى الوصول اليهم فاعلمه أسأل بما هم عليه من نقص الفطرة والاعراض عن أمر الله فلم يتأت له فهم ذلك وبقي فى نفسه تعلق بما كان قد أمله وطمع أسأل أن يهدى الله على يديه طائفة من معارفه المريدين الذين كانوا أقرب الى التخلص من سواهم فساعده على رأيه ورأيا أن يلتزما ساحل البحر ولا يفارقاه ليلا ولا نهارا لعل الله أن يسنى لهما عبور البحر فالتزما ذلك وابتهلا الى الله تعالي بالدعاء أن يهيئ لهما من

Digitized by Birzeit University Library

أمرهما رشدا فكان من أمر الله عز وجل ان سفينة فى البحر ضلت مسلكها ودفعتها الرياح وتلاطم الامواج الى ساحلها فلما قربت من البر رأي أهلها الرجلين على الشاطئ فدنوا منهما فكلمهم أسال وسألهم ان يحملوهما معهم فاجابوهما الى ذلك وأدخلوهما السفينة فارسل الله اليهم ريحا رخاء حملت السفينة فى أقرب مدة الى الجزيرة التى قصداها فنزلا بها ودخلا مدينتها. واجتمع أصحاب أسال به فعرفهم شأن حى بن يقظان فاشتملوا عليه اشتمالا شديدا وأكبروا أمره واجتمعوا اليه وأعظموه وبجلوه وأعلمه أسال ان تلك الطائفة هم أقرب الى الفهم والذكاء من جميع الناس وانه ان عجز عن تعليمهم فهو عن تعليم الجمهور أعجز. وكان رأس تلك الجزيرة وكبيرها سلامان وهو صاحب أسال الذى كان يرى ملازمة الجماعة ويقول بتحريم العزلة فشرع حى بن يقظان فى تعليمهم وبث أسرار الحكمة اليهم فما هو الا أن ترقى عن الظاهر قليلا وأخذ فى وصف ما سبق الى فهمهم خلافه فجعلوا ينقبضون منه وتشمئز نفوسهم مما يأتى به ويتسخطونه فى قلوبهم وان أظهروا له الرضا فى وجهه اكراما لغربته فيهم ومراعاة لحق صاحبهم أسال. ومازال حى بن يقظان يستلطفهم ليلا ونهارا ويبين لهم الحق سرا وجهارا فلا يزيدهم ذلك الا نفارا مع انهم كانوا محبين للخير راغبين فى الحق الا انهم لنقص فطرتهم كانوا لا يطلبون الحق من طريقه ولا يأخذونه بجهة تحقيقه ولا يلتمسونه من بابه بل كانوا لا يريدون معرفته من طريق أربابه فيئس من اصلاحهم وانقطع رجاؤه من صلاحهم لقلة فهمهم وتصفح طبقات الناس بعد ذلك فرأى كل حزب بما لديهم فرحون قد تخذوا الههم هواهم ومعبودهم شهواتهم وتهالكوا فى جمع حطام الدنيا والتهاهم التكاثر حتى زاروا المقابر لا تنجع فيهم الموعظة ولا تعمل فيهم الكلمة

Digitized by Birzeit University Library

الحسنة ولا يزدادون بالجدل الا اصرارا وأما الحكمة فلا سبيل لهم اليها ولا حظ لهم منها قد غمرتهم الجهالة وران على قلوبهم ما كانوا يكسبون (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم) فلما رأى سرادق العذاب قد أحاطت بهم وظلمات الحجب قد تغشتهم والكل منهم الا اليسير لا يتمسكون من ملتهم الا بالدنيا وقد نبذوا أعمالهم على حفتها وسهواتها وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا وألهاهم عن ذكر الله تعالى التجارة والبيع ولم يخافوا يوما تتقلب فيه القلوب والابصار بان له وتحقق على القطع ان مخاطبتهم بطريق المكاشفة لا تمكن وان تكليفهم من العمل فوق هذا القدر لا يتفق وان حظ أكثر الجمهور من الانتفاع بالشريعة انما هو فى حياتهم الدنيا ليستقيم له معاشه ولا يتعدي عليه سواه فيما اختص هو به وانه لا يفوز منهم بالسعادة الأخروية الا الشاذ النادر وهو (من أراد حرث الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن) وأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فان الجحيم هى المأوى وأى تعب أعظم وشقاوة أطم ممن اذا نصفحت أعماله من وقت انتباهه من نومه الى حين رجوعه الى الكرى لا تجد منها شيأ الا وهو يلتمس به تحصيل غاية من هذه الأمور المحسوسة الخسيسة اما مال يجمعه أو لذة ينالها أو شهوة يقضيها أو غيظ يتشفي به أو جاه يحرزه أو عمل من أعمال الشرع يتزين به أو يدافع عن رقبته وهى كلها (ظلمات بعضها فوق بعض) فى بحر لجى (وان منكم الا واردها كان على ربك حتما مقضيا) فلما فهم أحوال الناس وان أكثرهم بمنزلة الحيوان غير الناطق علم ان الحكمة كلها والهداية والتوفيق فيما نطقت به الرسل ووردت به الشريعة لا يمكن غير ذلك ولا يحتمل المزيد عليه فلكل عمل رجال وكل ميسر لما خلق له (سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا)

فانصرف الي سلامان وأصحابه فاعتذر لهم عما تكلم به معهم وتبرأ اليهم منه وأعلمهم أنه قد رأي مثل رأيهم واهتدي بمثل هديهم وأوصاهم بملازمة ماهم عليه من التزام حدود الشرع والاعمال الظاهرة وقلة الخوض فيما لايعنيهم ولايمان بالمتشابهات والتسليم لها والاعراض عن البدع والاهواء والاقتداء بالسلف الصالح والترك لمحدثات الأمور وأمرهم بمجانبة ماعليه جمهور العوام من اهمال الشريعة والاقبال على الدنيا وحذرهم عنه غاية التحذير وعلم هو وصاحبه أسال ان هذه الطائفة المريدة القاصرة لانجاة لها الا بهذا الطريق وانها ان رفعت عنه الى بقاع الاستبصار اختل ماهي عليه ولم يمكنها ان تلحق بدرجة السعداء وتذبذبت وانتكست وساءت عاقبتها وان هي دامت على ماهي عليه حتي يوافيها اليقين فازت بالامن وكانت من أصحاب اليمين وأما السابقون السابقون فاولئك المقربون • فودعاهم وانفصلا منهم وتلطفا في العود الى جزيرتهما حتى يسر الله عز وجل عليهما العبور اليها وطلب حي بن يقظان مقامه الكريم بالنحو الذي طلبه أولا حتى عاد اليه واقتدى به أسال حتى قرب منه أو كاد وعبدالله بتلك الجزيرة حتي أتاها اليقين • هذا أيدنا الله واياك بروح منه ما كان من نبأحي بن يقظان وأسال وسلامان وقد اشتمل على حظ من الكلام لا يوجد في كتاب ولا يسمع في معتاد خطاب وهو من العلم المكنون الذى لا يقبله الا أهل المعرفة بالله ولا يجهله الا أهل الغرة بالله • وقد خالفنا فيه طريق السلف الصالح في الضنانة به والشح عليه الا ان الذى سهل علينا افشاء هذا السر وهتك الحجاب ما ظهر في زماننا هذا من آراء مفسدة نبغت بها متفلسفة العصر وصرحت بها حتى انتشرت في البلدان وعم ضررها وخشينا على الضعفاء الذين اطرحوا تقليد الانبياء صلوات الله عليهم وأرادوا تقليد السفهاء أن يظنوا

Digitized by Birzeit University Library

تلك الاراء هي المضنون بها على غير أهلها فيزيد بذلك حبهم فيها ولوعهم بها فرأينا أن نلمع اليهم بطرف من سر الاسرار لنجتذبهم الى جانب التحقيق ثم نصدهم عن ذلك الطريق ولم نخل مع ذلك ما أودعناه هذه الاوراق اليسيرة من الاسرار عن حجاب لطيف ينهتك سريعاً لمن هو من أهله ويتكاثف لمن لا يستحق تجاوزه حتى لا يتعداه، وأنا أسأل اخواني الواقفين على هذا الكلام أن يقبلوا عذري فيما تساهلت في تبيينه وتسامحت في تثبيته فلم أفعل ذلك الا لاني تسنمت شواهق يزل الطرف عن مرآها وأردت تقريب الكلام فيها على وجه الترتيب والتشويق في دخول الطريق، وأسأل الله التجاوز والعفو وان يوردنا من المعرفة به الصفو انه منعم كريم والسلام عليك أيها الاخ المفترض اسعافه ورحمة الله وبركاته

﴿ يقول مصححها كان الله له ﴾

بحمد الله تعالى المنان قد نجز طبع رسالة حي بن يقظان ولعمري انها رسالة بديعة الاختراع غريبة الانتزاع تمثل لمطالعها نموزجا من أساليب التفكر وتهديه الى طرق التدبر والتبصر وترقيه من حضيض الضلالة والجهل الى أسمى مراتب الهداية والعقل وهي مشحونة بجواهر الفوائد غاصة بنفائس الفرائد نسجت على نهج ظريف وأسلوب لطيف تشهد لمؤلفها بالفكرة النقادة والفطنة الوقادة فجزاه الله عنا أحسن جزاء وأسبغ عليه سحائب رحمته ورضاه وقد أسعفتنا يد العناية على طبعها حرصا على ثمين فوائدها ونشرا لنفيس فرائدها فجاء طبعها بحمد الله تعالى على أحسن وقع وألطف وضع وذلك بمطبعة السعادة في أواخر ذي الحجة من شهور سنة السابعة والعشرين بعد الثلاثمائة والألف من هجرة من هو علي أكمل وصف

Digitized by Birzeit University Library

Digitized by Birzeit University Library